أحمد الزعتري

الانحناء على جثة عمّان

رواية

المركز الثقافي العربي

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

صفحة كتب

الرجاء شراء الكتاب من المكتبات

دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى

مع تحيات فريق صفحة كتب

www.facebook.com/the.Boooks

أحمد الزعتري

الانحناء على جثة عمّان

facebook.com/the.Boooks

أحمد الزعتري

الانحناء على جثة عمّان

المركز الثقافي العربي

facebook.com/the.Boooks

«إنّني أتحدثُ دائماً إلى الموتى.

إنّه لسرّ غريب أن تشاهدَ ميتاً

وأغرب من ذلك أن تنظر إلى حيّ»

جاك بريفير

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

الكتاب
الانحناء على جثة عمّان
تأليف
أحمد الزعتري
الطبعة
الأولى، 2014
عدد الصفحات: 144
القياس: 14 × 21
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-696-7
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء - المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 - 0522 307651
فاكس: +212 522 305726
Email: markaz.casablanca@gmail.com
بيروت - لبنان
ص.ب: 5158 - 113 الحمراء
شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 - 01 352826
فاكس: +961 1 343701
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

1

لقد انتهى كلّ شيء. ليس هذا بالأمر السيئ أبداً. انتهى كل شيء فجأة، وعدنا جميعاً إلى المنازل التي استأجروها لنا. حصل البعض على أكشاك في جبل الحسين، زوايا في شارع مكّة، أسقف منازل مهدّمة في الدوار الثاني، لكنني كنتُ محظوظاً لأنهم استأجروا لي منزلاً في شارع الجامعة. أنتَ تذكر الشارع بالطبع، لكن حتى عودتي كانت بثمن. أتذكُر مستودع الأثاث الكبير الذي بناه العمّال السوريون خلال شهرين بالقرب من إشارة الدوريّات؟ حسناً، سأقول لك أمراً مدهشاً: تبيّن أن العمال لم يغادروه أصلاً خلال كل هذه الفترة.

عندما وصلت إلى هناك أشار إليّ اثنان منهم بالاقتراب. لم أكن أمتلك الطاقة الكافية للمجادلة أو حتى المقاومة. كنت قد مشيتُ كثيراً. وفكّرتُ كثيراً بأرسغٍ مقطوعة تتدلى من حواف أسطح البيوت الباردة، لكنني لم أكن مكتئباً تماماً. لو كنتُ شخصاً آخر- قلت لنفسي، لأحببتُ هذه المدينة التي أقطع ربعها في الواحدة صباحاً خلال ساعة واحدة فقط.

facebook.com/the.Boooks

لكنني احتجت إلى أربعة أيام. سلّمت فيها على نصف حرّاس السفارات؛ عرضتُ عليهم سجائري، ودخلت كشك أحدهم ولمستُ سلاحه وحدّثته عن إبراهيم الصعيدي. إلا اثنان، تجاهلتهما، وادّعيت أنني لم أسمع أحدهما يقول لي: «أوقّفلك سيارة توصلك سيدي؟».

ثم فكّرت في عمّان شارعاً واحداً. وشعرت بأنني سأحبُّ المدينة لو كان أهلها أكثر جنوناً قليلاً. كأن يصطادوا التماسيح التي تتخبّط ذيولها على حواف البرك الصغيرة. هكذا، تجاوزت دبّابة بسهولة. وشعرت بأنني أترك حياتي لتسير أمامي من دون ندم. تركتها، لأول مرة. وهكذا شعرت بالرضا.

وشعرت بأنّهم لو نفّذوا تهديدهم وقتلوني أنّني لا أبالي؛ فقد أطلقتُ حياتي، ولن ينافسني فيها أحد: لا زاوية في منزل، ولا عشب يخضرّ ببطء تحت سماء فارغة ولا حتى نصف الذراع المتعفّنة التي أعضّ عليها، وأتركها تتخبّط في قاع حقيبتي.

وكنت أفكّر طيلة الوقت بأنني أريد أن أكتب لك. فقد قالوا لي أن البريد عاد لتقديم خدماته كالمعتاد. في الحقيقة لم أثق بتلك المعلومة. خاصة بعد كل ما مررنا به.

ولم أكن أثق بموسى. أنت تعلم بالتأكيد لماذا.

كان موسى من أخبرني بالمعلومة. موسى نفسه الذي عرّفني على عالمٍ كامل، ثم أغلقه عني. قلتُ لك في إحدى المرات أن

موسى الذي نبّهني أول مرة إلى أنني سأحصل على حدبة.

«يوماً ما ستصير لك حدبة. إنك لا تنظر أمامك أبداً. تعرف، هناك شخص تعوّد أن ينظر إلى الأرض عندما يمشي، وجد الكثير من الفراطة والأوراق والمسامير والأحجار الملوّنة، لكن أصبحت لديه حدبة. سيحصل لك أمر مشابه بالتأكيد».

كنتُ صبيّاً بليداً وصغير الحجم. لو تعلم كم تحرّشوا بي. كان موسى أيضاً بليداً وصغير الحجم، لكنه كان بشعاً، بوجه بيضاويّ متطاول وعينين كبيرتين يغمرهما البياض، ويدين طويلتين لطالما جلبت لي كاسيتات أغاني المقاومة وكُتُبها،لكنه لم يكن يمتلك القوّة لمساعدتي. كنتُ هدف الممحونين أينما ذهبت. وازداد الأمر خطورة عندما بلغتُ فجأة واكتسبت وزناً في صدري وأردافي. في الحقيقة، لم أكن أعرف أنني بلغت. كنت فقط أقلّد ما يقوله الآخرون. في إحدى الليالي، كنت أنيك الكنبة بقضيب غضروفيّ مصقول حتى امتلأتْ أطرافي بخدر لم أفق منه إلا بعد دقائق. عندما انتهيت، لم أجد قطرة واحدة من الذي كان الآخرون يتحدّثون عنه. لذا، لم أرجع لنياكة الكنبة إلا بعد وقت طويل اعتقدتّ فيه أنني لا أزال صغيراً على البلوغ. وأن الممحونين يمتلكون الحق في التحرّش بي لذلك السبب.

آنذاك كان موسى يعلم بما يجري معي، لكنه كان حريصاً على ردم تلك الثقوب التي أحدثوها في علاقة مراهق أسمر بشع

facebook.com/the.Boooks

بمراهق أبيض مترهّل بالكتب والموسيقى والمقاومة. وكان هو من حدّد لي مخطّط حياتي: «انتبه. لا تصادق الجميع. ابنِ علاقاتك بناءً على موقفهم من المقاومة. معظم هؤلاء ضحايا للجهل. ابنِ علاقاتك بهم بناءً على قربهم وبعدهم عن السلاح. هذا ليس مكاننا وأنتَ تعرف ذلك. انظر إلينا: أنا مهووس بفتاةٍ لا أستطيع الحصول عليها، بينما ثمّة آخرون مهووسون بك. هل هذا ما تريد أن توسم به طيلة عمرك؟ أعني أننا سنكبر وسنتجاوز تلك الأمور وسنتذكّرها بعد عدة سنوات، لكن ثمّة مخلوقات همجيّة تتصارع في داخلك، وعليك أن تسهّل الطريق على أكثرها همجيّة. تستطيع أن تكون طيّب القلب دوماً، وهذا ما أحبّه بك، لكنّني أفكّر دوماً بك على أنّك فدائيّ متجهّم بقلب طيّب. ولن يفهم هذا غيري. اسمعني: أنا متأكّد من أنّني حدّدتُ سلفاً مسار حياتي: أريد أن أحمل السّلاح وأكتب. أن أقاتل لأخرج من هذا الجحيم، أن أكتب عن هذا الجحيم ليكون لحياتي معنىً خارجه. أعلم أننا محرومون حتى من مقارعة هذا الجحيم، لكن يجب علينا، على الأقل الآن، أن نَجِدَ حصّتنا من هذا الجحيم. كن جحيماً على نفسك وعلى الآخرين. دعهم يفعلون ما يريدون، لكنك يجب أن تجد مكاناً تهرب إليه، حتى لو كان ملجأ صراصير وفئران».

تعرف رأيي؟ ليحشر كل هذا في مؤخرته. لا لأنه التحق بعد عدة سنوات بعمل مع الجيش الأميركيّ في العراق فقط، بل

facebook.com/the.Boooks

أيضاً لأنه لم يكن قادراً على استشراف ما كان يحصل فعلاً. كان الأمر واضحاً جداً، ولم يتطلّب عبقرياً للتنبّؤ به. وكلنا كنا نعرف ذلك. لن أنسى مازن وهو يوجه لكمة إلى عامر لأنه جلس إلى جانبي في المقعد الخشبي وأخذ يدفع بي حتى ابتل بنطاله. كان البناء مكتملاً، لكن ما كان ينقصه هو شخص يلوّح بمسمار صغير من بعيد ويصرخ: سينهار.

عندما وجدته صدفة ملقىً أمام مستودع السيفواي للبيع بالجملة في المقابلين، كان كل شيء منتهياً. تعرّفت عليه بسهولة، رغم الدم الذي كان يُسكب على وجهه من جثّة طازجة على سطح المستودع. كان مذهولاً وهزيلاً، ولم يعرفني في البداية.

لكنني قتلته بعد ذلك.

أنتَ تعلم أن الكثيرين قُتِلوا. قتلهم أشخاص مثلنا دفاعاً عن أنفسهم: أشخاص ودودين، جيران مترهّلين على الشرفات، فتيات جميلات، متسكّعين على دوار باريس، فنانين، موسيقيين، أصحاب بسطات، وزراء، موظفي بنوك، مربّي عصافير وسلاحف، آباء وأجداد، عمّال دراي كلين، موظّفي الكاش في المولات، أطفال ومراهقين، نادلات نوادٍ ليليّة، موظفي استعلامات شركات الاتصالات. حتى نشطاء المعارضة التوافقيون شاركوا بالقتل.

ولم يكن موسى أوّل من قتلت.

facebook.com/the.Boooks

بعد أن مسحت وجهه بالتراب، وملأت له يديّ ببولي ليشرب، وقدّمت له نصف الذراع كي يعضّ عليها، خنقته بيديّ.

قد يبدو الأمر صعباً، لكنك لو كنتَ هنا ستتعوّد عليه.

في البداية، وزّعوا علينا كتيّبات للمبتدئين. وطبعاً، حاول الجميع الحصول عليها قبل أن تنفد. عدا أولئك الذين كتبوا هذه الكتيّبات، والمستشارين، والمدقّقين اللغويين، والناشرين، وأصحاب المكتبات، ومن صفّها، والجلادون في السجون.

كان الأمر مذهلاً، إذ تعرّفنا جميعاً على القتلة السابقين لأنّهم تبجّحوا إما بكتابتها، أو باستشارتهم. لذلك، كان هناك فائض محدود في كميّة الكتيّبات. كان التعداد الأخير 6249000، صحيح؟ وإذا استثنينا 685800 ممّن هم تحت 18 عاماً، و201730 ممّن فوق 65 عاماً سيبقى 5361470. حسناً، لماذا تعتقد أنه تبقّى 183 ألف كتيّب من دون مقتنٍ؟ ولأنني كنتُ في فريق التدقيق اللغويّ، حفظتُ معظم التعليمات بسرعة رغم أن الرقابة كانت شديدة علينا. واستطعنا حفظ المعلومات مقابل كاميرات المراقبة التي صمّمت لالتقاط أي نمط شاذ، كحركة شفاه تحاول ترديد المعلومات.

كان الأمر سهلاً. واكتشفتُ لاحقاً أن نوال، التي تعرّفت عليها هناك، قد اتّبعت الطريقة نفسها. كنتُ قد تجادلت مع مسؤول المناوبة حول عدم توفّر أوراق إضافيّة للمدقّقين. كانت

facebook.com/the.Boooks

حجّته، بالطبع، أنّ التعليمات تقتضي الاحتياط من أيّ محاولة لتسريب المعلومات. لذا، اقترحتُ مضاعفة التفتيش الشخصي على الحقائب والملابس لتشمل الياقات والأفواه وحتى الفرق الذي يفصل الردفين.

تمّت الموافقة على طلبي في اليوم التالي. وبدأتُ بالعمل فوراً: كنت أنسخ الأرقام فقط. هذه أصلاً نقطة ضعفي في النحو. وليس هناك من سبيل للتدقيق السليم بذهني إلا أن أكتب الأرقام بكل تصريفاتها مرة أخرى لأختار الأقرب للفظ السليم. ولأن إحدى التعليمات الداخليّة التي تمّ إقرارها لفريق التدقيق تقتضي بكتابة الرقم كتابةً، وليس رمزاً، فقد كانت هناك كميّة هائلة من الأرقام. مثلاً، لديك خمسة ثوانٍ لمفاجأة الخصم قبل أن تطلق عليه النار. وثلاث دقائق للغرق، وثمانية دقائق لبتر الذراع بسكّين مطبخ، وخمسة عشر ثانية لاقتلاع العين، وستة دقائق لشيّها.

لا أنكر أنني جرّبت بعض التعليمات لمجرّد التأكّد من صحّتها، لكن بشكل عام كانت مفيدة وصحيحة. ففي حالة موسى، كنّا نمشي في الشوارع الخلفيّة لضاحية الياسمين؛ سعيدَيْن قليلاً وثرثارَيْن. كنتُ سعيداً للالتقاء به مرة أخرى فعلاً، لكنني كنتُ قرّرت قتله منذ وقت طويل.

في إحدى المرات، اتّصل بي وهو منتشٍ، وأخذ يخبرني عن مغامراته في منزله الجديد بخلدا. وروى لي يومها كيف

facebook.com/the.Boooks

لوّحت له طالبة في المدرسة الإنجليزيّة الحديثة من وراء زجاج نافذة الحافلة. في ذلك الوقت، كنتُ مكتئباً وخائفاً من الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي لمواجهة قاطع طريق توعّدني بالضرب.

كان موسى يتكلّم ببطء لم أتحمّله. وعندما حاولتُ أن أخبره، قطع الاتصال خوفاً من أن تتّصل به تلك الفتاة التي أعطاها رقم هاتفه. أغلقت السمّاعة، ونهضتُ عن الكرسيّ، وضربته بكل طاقتي. ولاحقاً عندما استيقظت في المستشفى بكسرٍ في قدمي، قرّرت أنني سأقتله.

أنتَ لا تعرف كيف يمكنك أن تمشي إلى جانب شخص تريد أن تقتله باللحظة المناسبة. ولا تعرف كيف يمكنك أن تمشي في هذا الفراغ الذي يضغط على الصدر. كانت الشوارع الخلفيّة لضاحية الياسمين فارغة عن آخرها. الوقت هنا يصغر ويمكنك أن تعدّه على أصابعك: جثّة، اثنتان، طفلة ببنطال أحمر، رأسٌ ملتحٍ، قطّة تتعثّر بإصبع، امرأة محجّبة سمينة تلتهم كتلة أمعاء.

أنت لا تستطيع أن تعرف كيف يمكن أن تشهد غروباً ينهار على الأفق. أن تشعر بأن هذه المدينة كانت توفّر لك هذا الانهيار طيلة الوقت. أنه فعلاً لا يهمّ الآن ما حصل؛ فقد انتهى كل شيء، وسيظل الغروب ينهار على خلفيّة باهتة من فرط استعمالها. أنّك تقوم بحفر حفرة طيلة الليل، وعندما تستيقظ

facebook.com/the.Boooks

لتجد أن ثمّة من أو ما ردمها، فتعيد الحفر من دون أن تبالغ بالأسئلة. لا تعرف كيف يمكن أن تنبّش صداقات وكؤوس بيرة وساعات من الجنس ومئات عبوات الواقي الذكري وقشعريرة الإمساك بيدك في السيارة طوال شارع الجامعة ومئات المقالات والعيون التي ماتت في تجهّمك وصورة الملك على الدوّار الثالث وآلاف السجائر المقلوبة على أقماعها ومغنٍّ بيدين طويلتين على الغيتار ووجه بدون ملامح بارزة وظهر منحنٍ كالغراب يغني: «السدّ اللي بيني وبينك عالي».

كتبتَ لي مرة أنك تريد كتابة قصة جديدة بعد أن قرأت جملة لهايدغر: «إنه قريب جداً لدرجة أنه قمعيّ ويخطف الأنفاس، لكنه، رغم ذلك، ليس في أيّ مكان».

حسناً، يبدو أننا كنا نعيش ذلك على مستويات مختلفة. عمّان لا تعني شيئاً محدّداً. يمكنها أن تكون كل الأمور التي ذكرتُها، لكنها بدون ذاكرة فعليّة. إنها خدعة: كمين اشترك في نصبه الجميع ونجوا منه كلّهم. أنا أستيقظ كل يوم لأنظر نفسي في المرآة من دون أن أشعر أنني في مكان ما. أغلي القهوة، أقوم بتمرين للمعدة، أدخّن، أقرأ الأخبار، أكتب، أحاول أن أكتب، أنهض لأستمني، أفقد نصف طاقتي، أقرأ، أتلقى اتصالاً، أضحك، أفسّر الاتصال على أنه رغبة فعليّة بالتواصل. أتخيّل تواصلاً ثانياً، أستمني، أخرج إلى الشارع، أستقل التاكسي، أشتم مع السائق الأزمة والحرّ والبرد والناس

facebook.com/the.Boooks

والحكومة، أشرب البيرة، أنظر إلى صديقة تقول لي بأنها تفتقدني، أقول لها «لماذا؟»، تصمت، أضع يدي على شعرها، تضع رأسها على صدري، تقول إنها مرهَقة، لكنها تفتقدني، تفتقدني ولا تعرف لماذا، أنهض إلى الحمّام، أسكب ليترات من البول، أضع يداي على رأسي، ويدان على المرحاض، ويدان أسحب بهما سحّاب الجينز، أنظر إلى المرآة من دون أن أشعر أنني في مكان ما. أنا ضائع وغريب.

أفكّر في هايدغر: «لكن «اللامكان» لا يعني شيئاً، بل المنطقة بشكل عام تكمن فيه. لذلك، لا يمكن للتهديد أن يقترب من اتجاه محدّد من الدنو؛ إنه موجود سلفاً، وليس له مكان في الوقت نفسه. إنه قريب جداً لدرجة أنه قمعيّ ويخطف الأنفاس. لكنه، رغم ذلك، ليس في أيّ مكان». أنتَ لا تعرف كل ذلك. أنتَ هاجرتَ قبل أن يحدث كل شيء. وأنا كنت أمشي مع موسى في ضاحية الياسمين أمام الكشّاف الذي يبعد عنّا مسافة كيلومترات، والذي يضيء ناحيتنا كل أربع دقائق وعشر ثوانٍ.

كانت المعلومات التي حفظتها من الكتيّب تشير إلى أنني سأحتاج من أربع إلى ستة دقائق. قلتُ لنفسي إنّه هزيل وضعيف ولن يقاومني. كان حزيناً إلى درجة أنّه كان يتنفّس بصعوبة. فكّرتُ بأن هذا سبب آخر لتقليل المدة لأنه لا يحصل على الأوكسجين الكافي.

كلّما اقتربت أكثر من المنارة شعرتُ بأنني تركتُ شيئاً ورائي. تفقّدت نصف الذراع في حقيبتي، أعشاب يانسون وشيح وميرميّة، كتيّب «العودة إلى المنزل»، النسخة المطبوعة من صفحة عمّان على الويكيبيديا، سلسلة بطرفها نجمة داوود، وحبّات بندورة وخيار. وأكملت طريقي حتى وصلت بعد يومين إلى مدخل الطلعة وطلب مني السوريّان الاقتراب.

«جوعان؟» سألني أحدهما. قلت إنّ لدي ما يكفيني في الحقيبة. «من وين جاي؟» سألني الآخر، ولم أرد. نظرا إلى بعضهما للحظة ثم إليّ مرة أخرى. كانا يبدوان هزيلين جداً. ارتدى أحدهما بنطالاً واسعاً ربطه بحبل من الخصر، وقميصاً أخضر غامقاً. والآخر ارتدى أوفرهول مرتّقاً من عدة جوانب بأقمشة بألوان مختلفة، ولم يكن يرتدي شيئاً تحت الشيّالات.

«كنت هنيك؟» عاد الثاني ليسأل. وعندما جاوبته، هجم علي مرحّباً واحتضنني صارخاً: «الله أكبر. الله أكبر». حتى تنصّلت منه ومشيت باتجاه المنزل وأنا أسمعهم يصرخون على بعضهم. وعندما التفتّ ورائي، رأيتُ عشرات الرجال الهزيلين والمجروحين والميتين والسعيدين يقفزون من على السلّم، الذي وضع على طرف الطابق الأول للمستودع، باتجاهي. وعندما وصلوا إليّ أوقعوني على الأرض وحملوني، وعادوا بي إلى المستودع.

احتجزوني هناك أسبوعاً كاملاً، لكنني لم أكن أبالي،

facebook.com/the.Boooks

وخضعتُ لأوامرهم من دون مقاومة. خاصّة أنهم كانوا يتعاملون معي بلطف في أغلب الأحيان، موفّرين لي الطعام والماء. وفي مساء كل يوم، كان يأتيني شخص مختلف ليسألني سؤالاً واحداً: «بتعرف شو عمل سفيان بن معاوية بابن المقفّع؟». وقبل أن يطلقوني أخبروني بالجواب. فقد وضع سفيان ابن المقفّع أمام وعاء مملوء بمياه تغلي على نار هادئة، وأخذ يقطّع أطرافه ويغليها في الوعاء ثم يجبره على أكلها حتى مات. كانوا يدرّبونني على أن أكون جاراً مسالماً فقط.

facebook.com/the.Boooks

2

أنا الآن في المنزل الذي استأجروه لي. ولقد انتهى كل شيء. مرّ وقت طويل قبل أن أستعمل مفتاحاً حتى كدتُ أن أنسى وظيفته. كنتُ أحمل مفتاحاً يدخلني إلى المنزل، وأفكّر في جسدي وهو يميل إلى الأمام ببطء، ويلمس المقبض، ويلكِز الزرفيل، محقّقاً شيئاً ميكانيكيّاً يوميّاً يدخلني إلى المنزل الذي يحتوي على غرفة مستطيلة بشبّاكين: أحدهما في الجهة الغربيّة، والآخر في الجهة الجنوبيّة الغربيّة. وفي الوقت المناسب، يمكنك أن ترى الشّمس تقطع المسافة بين الشبّاكين، بينما طرفها لا يزال يستعمل الشبّاك الجنوبيّ الغربيّ. ليقع عمود من الضوء الباهت على طرف صوفا لندّعي أنها زرقاء كالحة ألقيت عليها ملابس متغبّرة.

أنا لا أتحدّث عن المدينة، أتحدّث عن المنازل هنا. المنازل التي من المفترض أنها تقع خارج المدينة. المنازل التي تتّسع وتزداد إضاءة كلّما فكّرتَ فيها.

آه، نسيتُ أن أقول لك إنك يجب أن تكون وحيداً في هذا

facebook.com/the.Boooks

المنزل. أن تقضي أيّاماً من دون أن تتكلّم بكلمة. أن تحبِس نفسك في المطبخ مثلاً لأنك صفقت الباب بقوّة ولم يعد ينفتح. ولكي تدّعي أنّك جرّبت كل الحلول، تخلع المقبض كله من الداخل ملبيّاً نصف رغبة عميقة جداً في أن تنحبس في منزلك. أن تنحبس مع كل ما تعفّن، وكل ما نسيتَ أن تخلطه بماء. وإذا ما بقيت الليلة في مشغل البكتيريا هذا ستؤكل، بالتأكيد، وأنتَ تنظر إلى القمر وهو يلتهم منخُل الشبّاك المتّسخ.

ينبغي عليك آنذاك أن تفكّر في أمور كثيرة. لا أستطيع أن أشرح لك بدقّة، لكن ربما يجب عليك أن تبدأ بالتفكير في أن المدينة لا وجود لها خارج هذا المطبخ. ألم يكن هذا هو الحال طيلة الوقت؟ يعني لندّعي أنّك تفكّر في الانتحار مثلاً، وبأنّك تهيّئ نفسك لهذا الانتحار، وبأن اللحظة التي تنقطع فيها عن التفكير بهذا الانتحار تكون داخله. في هذه اللحظة أيضاً تفكّر المدينة في الانتحار: في مجرّد نوم طويل، مساحةً تعرّض فيها خلاياها إلى النوم. مجرّد ثوانٍ تنطفئ فيها الأضواء، وتسقط فيها الأسلحة على أبواب المنازل، وتظهر أكوام عجلات محترقة في الشوارع، وتعلو غيمة دخان رماديّة قلب امرأة تقطع الشارع هي وابنها.

دعنا أيضاً ألا ندّعي بأن هذه المدينة هي عمّان، وبأنّ ثمّة آخرين يفكّرون في الشيء نفسه باللحظة نفسها. بأنّهم انحبسوا باللحظة نفسها في المطابخ ويفكّرون في الانتحار. أنّهم كانوا

facebook.com/the.Boooks

يهيئون أنفسهم لهذه اللحظة طيلة الوقت: على طوابير سرافيس شارع مكّة، في فترات راحة عمّال مصانع المدينة الصناعيّة في سحاب، لدى تسجيل الممرضين في مستشفى البشير وقت دخولهم لبدء نوباتهم الليليّة، واللحظة التي يعجز فيها كتبة الاستدعاءات عن التفوّق على نظام حوسبة الأحوال المدنيّة. أنّهم في لحظة واحدة قرروا القفز عن أسقف منازلهم،لكن ما حصل أننا جميعاً نجونا في اللحظة نفسها. قفزنا لنهبط في عمّان أخرى، حيث استأجروا لنا المنازل، وأثّثوها، وتعمّدوا ترك ملابس وقطع أثاث مستعملة، وحتى صور جاهزة لما يجب لدورة حياة جاهزة أن تكون عليه.

هنا، في المنزل،ثمّة جينز فاتح بسحّاب خارج عمود الضوء الذي بدأ بالتحوّل إلى دوائر فارغة الآن. الجينز ملقى بفوضويّة فوق الصوفا، ويظهر، من اتسّاع خصره، حوضاً ممتلئاً لصاحبه. ثمّة قميص صيفيّ كحلي مخطّط بالأبيض، ألقيت فوقه جاكيت بدلة سوداء لا تظهر تفاصيل قصّتها. على الطرف الآخر من الصوفا معطف حمّام أصفر باهت ومنقوع بالغبار، ملقى إلى جانب منشفة خضراء فاقعة. فوقهما كومة ملابس يتدلى من جانبها طرف معطف أنيق، وكمّ قميص كاروهات صغيرة جداً. يكاد طرف المعطف أن يلمس فردة حذاء لا تزال أشرطته مربوطة. أما معطف الحمّام فيغطّي طرفه مقدمة بوط بعنق متوسطة. مقدّمة الحذاءين تتجه إلى الجدار الذي رُسم على

facebook.com/the.Boooks

منتصفه، بقلم رصاص، خط يتلطّخ ليترك بقعاً رماديّة. مؤخرة الحذائين تتجه إلى مدفأة غاز اقتلع هيكلها ووضع فيها حطب محترق. وعلى سطح المدفأة الملطّخ فوطة صفراء عليها مفتاح غاز، وسكّين كبير يشير نصله إلى ثلاث صور معلّقة على الجدار المقابل: إبراهيم الصعيدي، وعايدة، وجسر النقّيفة.

أجلس مقابل جدار الصور وأنا أكتب لك. على صوفا زرقاء أقل بهتاناً. قدماي مرفوعتان على طاولة صغيرة عليها فنجان أبيض متوسط الحجم موضوع على قطعة ورق مقوّى مرسوم عليها غاندي. ومطفأة تحتوي على تسع سجائر عكفت فلاترها بالطريقة نفسها، ملقط حواجب، ولاعتان: خضراء شفافة، وزرقاء صغيرة. وعلبة سجائر عليها ولاعة صفراء.

يداي الاثنتان على الطاولة، حاملاً سيجارة يكاد رمادها أن يسقط على الورقة. أرفع رأسي كل لحظة لأصف المشهد الذي أراه لأكتبه. وكل دقيقة أرفع نظري عن الورقة لأفكّر، ناظراً إلى قدميّ اللتين انحسر عنهما البنطال المخطّط بالأسود والرمادي والأبيض على جوارب رماديّة وخفّ بنّي ثقيل. كل 10 دقائق أمدّ يديّ اليمنى إلى جانبيّ من دون أن أنظر لألتقط زجاجة ماء وأشرب منها وأنا أنظر إلى أكوام الكتب المصفوفة بعناية إلى الطاولة المتوسطة إلى يميني: كتيّب «الانضباط في الحيّز المأهول الجديد»، «معركة الجسر المجيدة»، «ماذا تعرف عن عمّال العبدلي؟»، «الخطّة الخمسيّة لتطوير وسط عمّان

facebook.com/the.Boooks

الجديد»، «إبراهيم الصعيدي: مهنتي ككادح»، و«شهداء المدرّج الروماني».

أكتبُ كل شيء بمجرّد حصوله، وأصف كل شيء بمجرّد أن يتحقّق. وعندما تمشي الغيمة التي وصفتها قبل قليل، أعود إلى ما كتبه وأعدّله حتى تختفي تماماً.

أحاول ألا أقع في المشكلة التي لطالما حاولت تجنّبها: أفكّر في المشكلة، واضعاً يدي الباردة على شعري القصير لأشتم رائحة عرق من تحت إبطي، وأتذكّر صديقة قالت بأنها تحبّ رائحة عرق الإبط.

أكتب الجملة مرتين، وأقرّر بأنّني سأتخلّص من كل الذين قتلتهم عندما أكتب عنهم مرتين.

وأعود لأفكّر في المشكلة وأنا أشعل سيجارة أخرى.

وأعود لأفكّر في المشكلة وأنا أشعل سيجارة أخرى.

أتفقّد يدي المليئة بالجروح، وأعدّها: أربعة. لا بد أنني حصلت على الجرح الرابع من أسنان موسى.

في البداية، كنت أتجنّب أن أكتب لك، لكنّني فكّرت في أن الأمر يعنيك. وربما أنتَ المعني من كل هذا. أريد أن أفهم، وأريد أن تساعدني على ذلك.

لكنني أكتشف أنني أريد أن أستهلك الوقت كغيري. لذا،

facebook.com/the.Boooks

أقصيت كل القصص التي يمكن أن أكتبها وأشوّهها، وكل الأفكار التي أريد كتابتها عن هيغل.

واكتشفتُ أيضاً أنّني أريد التخلّص من الدهشة في الكتابة. أريد فقط أن أكتب بدون أن أترك أثراً.

وأنظر إلى قدماي اللتان تلمعان الآن في عمود الضوء.

وأنظر إلى قدمياي اللتان تلمعان الآن في عمود الضوء.

في الواقع، أردت التخلّص أيضاً من الكتابة عمّا حصل. وكلمات مثل: «في الواقع». ولأني الآن أشعر بأقل ثقل للوقت، قرّرت أن أكتب لك عمّا حصل، رغم أنّني أريد أن أحتفظ به لنفسي.

أنا في الواقع، في الواقع، أريد التخلّص من أي شعور من أي شخص تجاهي. ربما يتحسّن ذلك، كما قلت لنفسي وأنا أفتح علبة سجائر أخرى.

أولاً: أنزع غلاف البلاستيك الذي يغلّف طرف العلبة.

ثانياً: أفتح العلبة وأنزع غلاف القصدير عن أطراف السجائر.

ثالثاً: أكوّم طرف غلاف البلاستيك، وألفّ باقي الغلاف عليها.

رابعاً: أمسك كرة الغلاف البلاستيك بأصبعين، وألفّ القصدير عليها.

facebook.com/the.Boooks

خامساً: أضع الكرة في المنفضة.

أعتقد أنني أكتب لك لأنه لم يعد ثمّة أحياء أستطيع الحديث معهم. لأننا قفزنا جميعاً مرّة أخيرة ووجدنا أنفسنا في منازل مأهولة. وجدنا أنفسنا وقد رتّب أحد، أو شيء ما مستقبلنا قبل أن نستطيع الإشارة إليه، أو قتله. أننا جميعاً وصلنا إلى الحافة التي تفصل شبّاك المطبخ عن الصالون لنحاول القفز مسافة غير مقدّرة ذهنيّاً. أننا كنا دائماً معلقين بيدٍ وقدم، واليد والقدم الأخريان كانتا دوماً في منتصف الطريق. أننا نظرنا في وقت واحد إلى السماء المعكوسة بين الغيوم، وتخدّرت في أذهاننا صورة من وما يقمعنا، وسكتنا عنها جميعاً في وقت واحد.

أجلس في هذه الزاوية وأنا أرى الشرفة في العمارة المقابلة مغلقة بالطوب عن آخرها. ليس ثمّة ما يشير إلى أن العمارة قد قصفت، لكن يبدو أنها مهجورة.

قبل وقت طويل، أيّ قبل أن يحصل كل هذا، قال السوريّون أنهم كانوا مفتونون بهذه الشرفة. في البداية، كانوا يعتقدون بأّنهم يهلوسون عندما اكتشفوا أن ثلاث عائلات تتناوب على الشرفة في اليوم. في الصباح، كان يحتلها رجل وامرأة سودانيّان يدخلان ويخرجان منها طيلة الوقت. كان إيقاعهما يدلّ على أنهما منهمكان بعمل في الداخل. وعندما يخرجان، يتحدّثان لبرهة، ثم يعودان. كأنهما ينجزان عملاً

facebook.com/the.Boooks

مطلوباً منهما. في فترة ما بعد الظهر، كانت عائلة أردنيّة تشغل المساحة، لكنني لم أكن أرى إلا عجوز ترتدي، طيلة الوقت، رداء الصلاة، وتسبّح بمسبحة، واضعة يدها على خدّها. ومن حين إلى آخر، تميل بجسدها ببطء إلى حافة الشرفة لتستطلع القادم. وتتحدّث مع آخر أو آخرين في داخل المنزل. وفي كل ليلة، يأتي أربعة شباب يرتدون بناطيل جينز بصدور عارية ليقوموا بالشواء وتدخين الأرجيلة ولعب الشدّة حتى الفجر، لكن الشرفة مغلقة الآن، والمنزل غارق خارج الوقت. وأنا أشعر بالجوع والتعب، ولا أستطيع التوقّف عن الكتابة أو التذكّر.

facebook.com/the.Boooks

3

لا أذكر تماماً كيف بدأت الأمور. من المحتمل أنها بدأت هكذا:

نستيقظ فجأة على قرع عنيف على الباب. لم يكن جرس البيت يعمل آنذاك، خرّبه أحد المتطفلين على حياتنا بعكّازه بعد أن ضغط به على الزر الناتئ للجرس على يسار الباب. زارنا الكثير من الناس في منزلنا بدافع الفضول، فقد كنّا نشكّل ثنائيّاً خارقاً. وفي غمرة انشغالنا ببناء علاقة صحيّة، مجنونة، لكن صحيّة، كانوا يراقبون كيف ستنهار. كنت مدققاً لغويّاً، وهي صحافيّة. واستقبلنا في منزلنا مئات الفضوليين الذين صمدنا أمامهم، لكنني أتذكّر الآن، بماذا كنا نتكلم في المنزل؟ في تلك اللحظات تحديداً؛ عندما تخفت الحاجة إلى الفلسفة والكتابة. عند مسح وشطف البيت، تنظيف الحمّام، سقاية النباتات. حين لا يعد هناك من داعٍ للوجوديّة أو الطبيعيّة أو الواقعيّة أو العبثيّة. لنتخيّل أنّ ثمّة شاعراً يحتضر، وأن أصدقاءه جاؤوا لتوديعه حاملين معهم كيس إجاص. لنتخيّل أن الشاعر

facebook.com/the.Boooks

مسك بإجاصة وتساءل: «ماذا تشبه الكمثرى؟ في شبابي كنت أرى فيها صورة عن ثدي الأنثى الشابة. والآن؟ لا تزال الثمرة كما كانت، ولا تزال في أكثر من مكان أنثى تحمل الكمثرى».
هذا غباء، عندي فكرة أخرى: الإجاص للأكل، وبعدين؟ يخرج من مؤخراتنا على شكل خراء.

لماذا هذا النّزوع نحو الاطمئنان الممل؟ حتى أنا أتساءل إن كنت أريد الابتعاد عن هذا الوصف الفاتر مثل «بتجنني» أو «لبؤة» بعد ممارسة الجنس، فلماذا لا أصفها بما هي حقاً؟ مرة ابتعدت في هذا الوصف وقلت لها أنها شجرة. ذُهِلَتْ وسألتني: «أنا شجرة»؟. انتابني عندها رعبٌ حقيقيّ. كنّا نقف على الرصيف بانتظار تاكسي يقلّنا إلى السوق. كانت سعيدة ومنفعلة، تتحدث باستمرار وتقفز حولي كطفلة طوال الوقت. في تلك الأوقات بالذات كنت أكتفي بشراكتي في المشهد، متكوّراً كعجوز في أعمق نقطة معتمة بداخلي بدلاً من أن أشاركها حماسها هذا، فأحاول أن أبدو رزيناً وصارماً فأقول شيئاً مثل «إنتي زي الشجرة». وعندما لاحظت أنها تفاجأتْ خفتُ لاعتقادي بأنني خرّبتُ مزاج تلك اللحظة، لكنها ابتسمت بعمق، واستدارت نحو الشجرة على الرصيف وأخذت تتمتم بطفولية «أنا شجرة. أنا شجرة». ربما هذه من إحدى تحفظاتها على طريقة تعاملي مع الكيمياء بيننا. كَتَبَتْ مرة: «أحمد لا يحب الكلام، أحمد يجلس على الصوفا الزرقاء ويصغي إلى

facebook.com/the.Boooks

موسيقى بداخله». هذا ليس أنا، أردّد لنفسي دائماً، لكنّنا في الحقيقة لسنا أنفسنا، إننا ما نودّ أن نكون. حتى تلك العبارة لا تعني شيئاً محدّداً، شو يعني «إننا ما نود أن نكون»؟ أنا فعلاً أود أن أكون أكثر انفعالاً وحساسيّة، وهذا يستدعي أن أتحرَّر من أشياء كثيرة: منها أن أتخلى عن ذلك التبرير الغبي بأنني الصنيع النفسي لأبي الذي كان يقضي أياماً على الصوفا مقابل التلفزيون صامتاً وبلا ردود فعل. واللحظات الوحيدة التي رأيته بها متفاعلاً هي عندما يزورنا أحد. حينئذٍ يصبح ذكياً ولامعاً ومشرقاً، الثلاثة مع بعضهم. وكنتُ مبهوراً بذلك، ويزيدني ذلك إصراراً على أن أقلّد تلك الشخصيّة طوال الوقت، لكنني فشلت. ربما لو كنتُ رجل كهف، رجلاً بدائياً بشعر طويل وكثيف ومتّسخ ولحية تصل إلى صدري لأن شيئاً حادّاً وصلباً لم يُخترع بعد لأقوم بالحلاقة، لما كنتُ قد شاركتُ باختراع شيء؛ لا النار ولا العجل، ولا قمتُ بسنّ الأحجار ووضعها على عود طويل لأصطاد به. كنتُ في الأغلب سأمضي وقتي متسائلاً عن أهمية تلك الاختراعات، وعندما ينجح أحد الصيادين بتجويف عود خشبي سأقول له: صوت العصافير أجمل. وسأكون خاطئاً؛ لأنني أولاً لا أمتلك حسّاً جمالياً، فلو كان هذا صحيحاً لاخترعتُ ما يجعل من منظري مقبولاً، لأنني أرى نفسي في الماء، وأعرف أنني بحاجة إلى حلاقة شعري الطويل.

لا أعرف بماذا تفكّر القردة عندما تنظر إلى الماء، لكنها لو امتلكت حسّاً جمالياً لكانت اخترعت شيئاً تنادي فيه على

facebook.com/the.Boooks

العصافير، لأنها أكثر حيويّة منّا، وتصيح طول الوقت، ولا تشعر بالحاجة إلى التفكير في منظر شعرها على أجسادها.
جاري الذي نجح بتجويف ذلك العود الخشبي اخترع، أيضاً، شيئاً حادّاً وصلباً. رأيناه آخر مرة وقد قصّ شعره وأصبح يشبه قرداً كبيراً، ينفخ في العود، وقد أصبح حزيناً جداً.

facebook.com/the.Boooks

4

- إنه حزين جداً

- طبعاً حزين، مش قادر يتنفس

- مش عشان مش قادر يتنفس، في شي تاني. عمرك شفته بالحارة؟

- شفته بالسوبر ماركت مرة أو مرتين

- مش عارفة وين حطيته، أكيد ما رميته؟

- كنت بدي أرميه، بس..

- بس شو؟

- ما بعرف

- يا عمري إنتا لسا خايف؟ أنا شفيت

- يلعن دينه نذير فيصل شو إنه حمار، كل دكاترة مستشفى الجامعة موظفين سوبر ماركت

- خلص خلصنا من الموضوع وشفيت، مش هاد المهم؟

facebook.com/the.Boooks

- المهم نلاقي الجهاز هلق، رح أدور بخزانة الحيط مرة ثانية.

كل أضواء غرف البيت مضاءة. نتحرّك أنا ونوال بسرعة من الصالون إلى الحمّام والمطبخ وغرفة النوم لنبحث عن جهاز تبخيرة الربو للرجل الذي ينهار على الصوفا الزرقاء بالصالون غير قادر على التنفس. عندما فتحتُ الباب توقعتُ خبراً سيئاً. لم نكن متعودين على استقبال أحد حتى قبل كل هذا.

كنّا نبني لوحدتنا فندقاً ونسكنه. قضينا أيّاماً ونحن نتسوّق واجهات منازل مستقبليّة. مخازن حياتنا التي ستستمر إلى الأبد. قضينا أيّاماً ونحن نبتاع أواني نحاسيّة وصناديق خشبيّة من دون تفكير. كنا نلقّب الباعة آخر أصدقاءنا. كنا نخطّط ونفكّر لالتهام مفاتيح المنزل واحداً واحداً، ونحن نتناول الفاليوم واحد، والفاليوم اثنان، والفاليوم ثلاثة. كنا نركض ونسقط. نتلوّث بأصواتنا فنصمت. نصمّ آذاننا عن أصوات الآخرين فيتراكم المنزل بمئات الناس بأذرع تحاول بتر أيدينا لنستطيع سماعهم. أخبرها بقصّتي: كنت قد اشتريت قلم حبر جديد من النقود التي كنت أسرقها من أبي. ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي، جلست في درجي، وأخرجت القلم حتى يشاهده الجميع. كان موسى يجلس أمامي بكلّ عذاباته المترفة. التفت إليّ وأخذ القلم مني ورفض إرجاعه. قال إنّه يريد أن يكتب به رسالة إلى صبيّة جديدة يحبها. قلت إنني سرقت من

facebook.com/the.Boooks

أجل هذا القلم. قال إن الصبيّة ستحب خطّه. قلت إنني لا أمتلك أحداً لأرسل له رسائل. قال إنه سيحشيه. بكيت. فعل شادي الذي كان يجلس بجانبي شيئاً بصوته وقال: «لا تبكِ». لوى صوته كحديد مفرّغ وقال «لا تبكِ». فتح فمه وسمعت أخفضَ الأصوات من أكثر الكائنات وحشةً داخله وقال «لا تبكِ». تخبرني بقصّتها: يوماً ما ستحبّ جنديّاً في عينيه دموع حمر. ستتمكّن من إدارة حوار بذكاء. ستتنقّل من موضوع إلى آخر بخفة، تربط بينها وتفكّكها. ذكيّة، لامعة ومشرقة. تتكلّم عن كل شيء دفعة واحدة، تشير بيديها بانفعال. يداها ستتحركان في الفراغ الذي سيخلّفه صمتي. ثم اعتقدنا أننا بحاجة إلى أصدقاء عاديين؛ أشخاص على درجة مقبولة من الحساسيّة، وبضعة أمور مشتركة ليست منها، بالضرورة، الكتابة. لكننا لم نحتمل السذاجة والتهريج، فهذا النوع من الصداقات يتطلّب التزاماً عائليّاً إلى حدٍّ ما؛ أن نصبح جزءاً من منظومة خرّبناها قبل أن نهرب منها، فأنا لستُ مهرّجاً ودوداً، وهي أبعد ما يكون عن دور امرأة تتشارك الأحاديث السرّيّة مع النساء أثناء إعداد القهوة في المطبخ. ثم اشترينا ضوءان: برتقالي وأزرق، وعلقناهما إلى جانب بعضهما في السقف، وحرصنا على أن تكون المسافة بينهما عبثيّة: مجرّد 15 سنتيمتراً لا تعني شيئاً يمكن ملؤها بحمارين بجسد حمام، بقطط مولودة للتو تحمل قططاً صغيرة، بعدد سنتيمترات مماثل من الغبار الذي يتكوّم بغرفةٍ لن ندخلها، بعدد سنتيمترات مماثل من

facebook.com/the.Boooks

القماش الذي كاد أن يتحجّج مغتصِب باختفائه. ورقتا شجرة كينا بعروق صفراء شاحبة، صدع في شارع، طول سطر واحد، رسالة فارغة. لا شيء. فقط لا شيء. عالمٌ مختلّ من فرط التعداد. لا شيء. تحديقنا بهذه المسافة. رغبتنا الشديدة بالتسلق والمكوث هناك. لا شيء.

أفتح الباب على رجل أسمر، قصير وممتلئ بلهاثٍ متقطّع، فينهار عليّ. كان متكئاً على الباب عندما فتحته، فسقط بثقله عليّ. لم يكن ثقيلاً جداً، لكن المفاجأة أوقعتني على الأرض تحته. أحاول إزاحته عنّي فلا أستطيع، أفكّر فيما لو أنني وقفت خلف الباب لما حصل هذا، وخفت من فكرة أنه قد زرع شيئاً بجسدي. عندما كنتُ صغيراً، استوقفني صبية أكبر مني بعشر سنوات في طريقي من المدرسة إلى المنزل. صبية طوال ويضحكون باستمرار. اقترب أحدهم مني وسألني عن منزلي فأشرت إليه. ثم وضع يده على كتفي وضغط عليه، شعرتُ أنه يفرغ إبرة بجسدي ففزعت وركضت إلى البيت. راقبت نفسي بعد ذلك لمدة شهر منتظراً أعراض الإيدز. قرأتُ كثيراً عن الدّم الملوّث بالإيدز، وبالصدفة كان التلفزيون يعرض برامج شبه يوميّة للاحتفال بشهر التوعيّة من المرض. كان شهراً سيّئاً، من أسوأ شهور حياتي، فلم أكن قادراً على سؤال ذلك المستلقي على الصوفا مقابل التلفزيون عن الأمر، لأنني لم أتوقع أن يصدر عن ذلك الجسد البارد رد فعلٍ كفيل بطمأنتي. تصل نوال

facebook.com/the.Boooks

إلى الباب حافية، ترتدي روباً أحمر وتنظر إلى منظرنا على الأرض برعب. أقول لها لا تخافي: إنه مريض. أسحب جسدي من تحته، ومن خوفها، تساعدني بذلك بدلاً من أن تحاول النهوض به من فوقي. نرفع الجسد المنهار، أمسك بذراعيه بينما تمسك بجذعه، وبينما أقوم برفعه، تتدلّى قلادة من رقبته خطر لي أنها نجمة داوود، لكنني لم أتأكد من ذلك في العتمة، وكان الوضع كله غامضاً على أيّ حال. نجحنا بجرّه إلى الصوفا الزرقاء في الصالون. «خذوني إلى المستشفى رجاءً»، قال، سألناه ما به، «أزمة. أزمة». نظرنا بأعين بعضنا وفهمنا مباشرة وركضنا في أنحاء المنزل، من الصالون إلى الحمّام والمطبخ وغرفة النوم لنبحث عن جهاز تبخيرة الربو.

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

5

الساعة الخامسة وعشرين دقيقة. الجو بارد جداً كما يجب أن يكون صباح يوم في شباط/ فبراير، أقف على الشباك فاتحاً جزءاً من الستارة على الشارع. بدأ المطر بالهطول. هذا جيّد، فلم تمطر من عدة أيام باردة جداً. أفتح الشباك لأشتمّ الرائحة لأجد قطة ممسوحة بالأرض أو كلب. في الأغلب أنّه كلب لم يبق منه إلا ذيله. بقعة وبر ناتئة قليلاً عن الأرض، وذيل.

الساعة الخامسة والنصف. الجو بارد جداً كما يجب أن يكون صباح يوم في شباط. أقف على الشباك فاتحاً جزءاً من الستارة على الشارع الذي يبتلّ. بقيت عدة أجزاء جافة من الإسفلت، المطر يدور حول تلك الأجزاء ولا يمسّها. ليس هناك ضوء في السماء، فقط غيوم رمادية تتحرك ببطء. على الحائط في الجانب الثاني من الشارع كتب بخط رديء «كس أخت الوحدات». مرّة قالتْ لنا مشروع صديقة أنها تحبّ مشهدية الشتاء في عمّان. نظرنا أنا ونوال إلى بعضنا: هذا صحيح، لكنها بالتأكيد لم تأتِ بهذا الوصف من عندها. هكذا

facebook.com/the.Boooks

كنّا نخرّب أصدقاءنا، كنا نحاول أن نبدو ساذجين بقدر الإمكان، بل وأن نضحي بكثير من الوعي لمصلحة مشروع صداقة، لكننا، في النهاية، نفشل بالتحوّل إلى جزء من هذه الأضحوكة: منظومة كاملة من أشخاص يبثّون طاقاتهم بضراوة إلينا.

الساعة الخامسة وخمس وثلاثون دقيقة. الجو بارد جداً كما يجب أن يكون صباح يوم في شباط. أقف على الشباك فاتحاً جزءاً من الستارة على الشارع الذي أصبح مبتلاً عن آخره. نوال تجلس على صوفا بجانب الرجل الأسمر تنظر إليه طيلة الوقت. صوت الجهاز مزعج جداً في هذا الوقت من الصباح. الرجل يغمض عينيه ويتنفّس بضجيج أقل الآن. تعلق قطرات الهواء الرطب المخلوط مع الكورتيزون بداخل القناع. وعندما تتجمّع، تشكّل خطاً واحداً ينزل من طرف القناع على وجهه. أفكر في نجمة داوود التي تأكدتُ منها بعد أن فككنا أزرار قميصه. مشروع صديق، أيضاً، كان يرتدي، في قلادة واحدة، صليباً وهلالاً ونجمة داوود. جو ينظر إلى الرجل الأسمر بفضول. يقفز إلى طرف الصوفا، ويمدّ يده إلى نجمة داوود ليهزّها ويلعب بها. تزيحه نوال برفق، وتتكلم معه كأنه طفل صغير: «عمّو مريض، ما بيصير». يرفض جو أن يبتعد محرّكاً رأسه بعصبيّة. يركض إلى طرف الصالون ويجلس لثوانٍ، ثم ينهض ويمشي على أطراف أرجله ويديه. وعندما يصل يقفز

facebook.com/the.Boooks

إلى الصوفا بجانب رأس الرجل، ويحاول مرة أخرى الوصول إلى النجمة، ماداً يده، جالساً بجانب رأس الرجل المتكئ على طرف الصوفا العالي. يخطئ جو بتقدير المسافة فيترك جسده ويسقط على صدر الرجل. عندها يستفيق مرتعباً ومحرجاً. مدركاً أنّه أيقظ أناساً غرباء بآخر الليل وطلب منهم أن يأخذوه إلى المستشفى، لكنّهم، بدلاً من ذلك، يقرّرون رعايته لأنّهم عرفوا مرضه. ينظر إلينا من وراء القناع محاولاً أن يقول شيئاً. «لا بأس»، تقول له نوال، «حظّك ممتاز، كان عندي ربو وما رميت الجهاز. منيح اللي لقينا أنابيب الدوا. بردان؟». كان يرتدي جينزاً متّسخاً جداً وقميصاً أبيض على الرغم من برودة الجو. «لا»، قال، بعد أن نزع القناع. ولأول مرة لاحظت شفتيه الكبيرتين، والتقرّحات التي تملأهما، قلتُ لنفسي إنها من المرض؛ فالمصاب بالربو يتنفس غالباً من فمه لأن إفرازات الالتهاب المستمر تسدّ الأنف، وهذا ما يجعل الشفتان تتلقيان الهواء الجاف.

يحاول النهوض. نساعده بالاتّكاء على طرف الصوفا العالي. جو ينظر إليه بفضول ويدور حوله. يبدأ الرجل بالنظر في البيت متحاشياً النظر بنا. ينزع القناع ويمسح ما تجمّع على وجهه. «بدّي أعملك بابونج»، تقول له نوال، ينظر فيها بامتنان شحّاذ. أحاول الهروب من الحرج والفراغ الذي يخلّفه فأتحجّج بعمل قهوة. «أنا بعملها كمان»، تقول نوال. فيبدأ عملي

facebook.com/the.Boooks

المملّ: تسلية الضيوف، لكني لا أعرف ماذا أقول. الرجل ينظر في الفراغ، وعليّ أن أقول شيئاً قصيراً وعميقاً في الوقت نفسه:

- من زمان عندك ربو؟

- من 37 سنة

- وما عندك جهاز؟

- بستعمل البخاخات

- ولما تيجيك الأزمة؟

- بروح عالمستشفى

- ..

- اسمع أنا آسف عشان تطفلت عليكم الليلة

- لا لا أبداً، مش قصدي، بس فكّرت إنك، إني، إنا نحكي

- مش مطلوب منك تسليني.

حسم جوابه القاسي هذه المحادثة الغبيّة. ليس عليّ الآن إلا انتظار نوال. نوال قادرة على أن تكون ذكيّة ولامعة ومشرقة. المحادثة المثاليّة تجري داخلي فقط.

facebook.com/the.Boooks

6

الرّجل يشرب البابونج على مهل بعد أن عدّل من جلسته. يمسك بالفنجان بكلتي يديه، وينصت إلى صوتٍ بعيد بداخله. لا يتكلّم. نوال تجلس على الصوفا نفسها بروبها الأحمر. لا تزال حافية. أفكّر أنّها يجب أن ترتدي جوارب سميكة. جو نائم على الأرض، رافعاً يديه وقدميه في الهواء كالعادة. أجلس على مقعد أقرب إلى الرجل منه إلى نوال. لا أفعل شيئاً، أفكّر بنفسي وأنا أجلس على مقعد أقرب إلى الرجل منه إلى نوال. نستمع إلى الجنود في الخارج وهم يردّدون، ككل صباح في الساعة السادسة: «جيشنا جيش العرب، سمّينا باسم الله. نحمي الوطن والعلم وعيون عبد الله». كما استيقظ الناس في يوم، وأصبحوا يردّدون هذه الأغاني من دون أن يستفسروا عن المصدر. استيقظوا، ووجدوا أن التلفزيون والإذاعات وأصحاب الأكشاك يبثّونها طيلة الوقت، فردّدوها. ولم يكن سرّاً أن لجان المعارضة قامت بتشكيل لجنة لتقصّي مصدر هذه الأغاني صرفت عليها مبالغ كبيرة، وجهود باحثين وجواسيس ومتقصّي أثر وإعلاميين. وعلى سبيل الترهّل البديهي، أنشأت

facebook.com/the.Boooks

اللجان مواقع إلكترونيّة بهدف تقصّي الحقائق. وأعلنوا بين دوائرهم أنّهم مستعدون للتعاون مع أي دليل ادّعى معرفة المصدر: أصحاب محال حلاقة، عاملين في سوق منكو لملابس العروس الداخليّة، متخصصو أشعة في المدينة الطبيّة، وعمّال مياومة في وزارة الزراعة. تابعت اللجنة عملها بإشادة الحكومة، وتمّ تخصيص مبلغ سنويّ لمراقبة أعمالها، وأبدت استعدادها، كلّما سمح الوقت، للمساعدة الفوريّة في حال عجزها عن أداء أعمالها بكفاءة. كان أثر اللجنة المراقبة حاسماً على لجنة تقصّي مصدر الأغاني. فبعد صدور القانون الخاص بها، بدأ مشهد موسيقيّ بديل بالتململ، داعياً إلى إسقاط موضوعيّ، وغير جذريّ، على قضايا الهويّة المحليّة، وظاهرة رمي النفايات في الشوارع، واجتثاث الفساد، وقضيّة الامتناع عن تنظيف الأسنان بالمعجون والفرشاة صباحاً. كما هيّأتْ اللجنة، بعد الدّعم اللامحدود، اجتماعات سريّة مع جاك دورسي ومارك زوكربيرغ لبحث الخطوات العمليّة، وتبادل وجهات النظر، في سبيل إتاحة المجال للمواطنين بالمشاركة في هذه اللجان، سرّاً، ومع عدم اشتراط علمهم، على تويتر والفيسبوك.

وعندما ظهرت دبكة الفساد في اعتصام أمام أبواب سجن الجويدة، تأكّدت اللجنة أن أسباب وجودها قد زالت. واعتبرت أنها منحلّة من ذلك اليوم. مصدرةً بياناً مقتضباً كان عنوانه

facebook.com/the.Boooks

«المانفستو الأخير»، تضمّن فقط، وبشكل غير معهود اخترق كل الأعراف، كلمات دبكة الفساد،لكن الناس تداولوا خبر إقامة اللجنة لحفل اختتامي كبير كرّموا فيه فرقة اللوزيين، والإشادة بتعاونهم خلال تجربة أغنية «يا بيرقنا العالي» التي قامت بها اللجنة، والتي تمّ تلحين دبكة الفساد على لحنها.

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

7

يحاول لويس النهوض. لويس. هذا ما قال إنه اسمه. وقال أيضاً إنه يجب أن يذهب. الساعة الآن السادسة والنصف. وأن حفلته في العاشرة ويجب عليه أن يستعيد المقطوعات التي سيعزفها. أمين عمّان سيفتتح مقرّاً للفنون الشعبية. بجانب بيت الفن ومقابل مدرسة الرفاعي. سيكون هناك الكثير من المسؤولين. التلفزيون سيكون هناك أيضاً. سيسجّل الافتتاح ويبثّ مقاطع منه في نشرة الأخبار الرئيسة. هذا ما قالوه لعازف الترومبيت في فرقة الأمانة للفنون الشعبيّة. قالوا إنه يجب عليه أن يغسل ويكوي الزي. وأن يحلق ذقنه ويقصّ أظافره. ولم يكن قد فعل شيئاً من ذلك. نوال ذكيّة ولامعة ومشرقة. تحلّها ببساطة: أذهب معه إلى البيت وآتي بالزي لتكويه بينما يستحم ويحلق ويقصّ أظافره. تكون الساعة السابعة. قبل مجيء اللجنة المرافِقة بربع ساعة. وفي الربع الساعة الباقية، يستعيد المقطوعات التي سيعزفها. نتجاوز الدبّابة المركونة على الرصيف وندخل البيت. الشمس قد بدأت بالظهور من بين الغيوم، آنذاك تماماً يمكن ملاحظة أعمدة الغبار

facebook.com/the.Boooks

في البيت. ملايين منها، ذرّات الغبار، تحملق في الفراغ: طريقتها الوحيدة في مديح الشمس. ملايين الذرات ذات أصول مجهولة. عفن، جلد ميت، بقايا صراصير ونمل، تراب أحذية، رماد سجائر، مخاط دموع وسعال. أعمدة غبار مستطيلة تقع على الأرض بطراوة الحجم، وحزم الشكل. كونٌ كامل. غبي مَن يعتقد بأن الكون بدأ من غير هذه المواد. لو راقبتُ الغبار لوقتٍ كافٍ لوُلِدَتْ نجمة. لو يعيش لويس طويلاً لاستطاع مراقبة مجرّة وهي تتكوّن. لكنه مريض، وهذا الغبار سيؤدّي إلى موته قريباً. البيت صغير جداً وقذر: صالون صغير يكفي لصوفا واحدة أمام ما يمكن أن يكون تلفزيوناً، قبل الصالون، وعلى يمين الباب تماماً المطبخ والحمّام معاً اللذان يفصل بينهما ستارة مرسوم عليها أطفال سعداء على دراجات ملوّنة. أطفال صغار جداً يتناسلون على الستارة كل مرة بلون مختلف. غرفة النوم في آخر البيت، صغيرة جداً وبلا شبابيك. الشبابيك فقط في أعلى الصالون. ألحق بلويس إلى غرفة النوم، يُخرج الزي من الخزانة ويعطيني إياه بوجه خالٍ من أدنى تعبير. آخذها وأفتح الباب. يبدأ بالسعال. يركض إلى الحمّام. مخاط لزج، أخضر وأصفر وبني، يضرب المغسلة فيختلط بالغبار. يفتح الماء. يؤشّر لي بيده. فأذهب.

facebook.com/the.Boooks

8

أجلس في الصالون وأراقب كطفل المكواة بيد نوال. لا نتكلّم. نحن في المنزل رقم 29، شارع أحمد فهمي باللويبدة، أيضاً، نحتال على الحبّ أحياناً ونسمّيه حبّاً. نغيّر أسماءنا باستمرار حتى نتجاوز المتاريس والدبابات. كان أمراً سهلاً؛ فقد سُحِبَت كل الهويّات المدنيّة وجوازات السفر تدريجيّاً من الجميع. احتاج الأمر إلى 5 سنوات للجوازات، و10 للهويّات.

حاولت بعض القوى تمرير قانون لتقليل مدة صلاحيّة الهويّات قبل تجديدها في ذلك المبنى على الدوّار الأول، لكنّهم فشلوا. فقد جوْبِه مشروع هذا القرار بمعارضة هائلة بحجج مختلفة. منهم قال إن ذلك سيكلّف الخزينة مالاً سيحتاجها البلد فيما بعد، ولا بأس من الانتظار «كمان كم سنة». آخرون قالوا إن تساؤلات الناس بعد الخمس سنوات، وحتى الاحتجاجات، ستمنحهم وقتاً للتكيّف مع القوانين الجديدة. عارض معارضو المعارضة هذا التبرير وقالوا إن مقترحيه قد ذهبوا بعيداً في السورياليّة السياسية. وبأنهم يستندون

facebook.com/the.Boooks

إلى قاعدة جماهيرية هشّة تتكون من ممارسي الطب النفسي والمتحدّثين باللغات الأجنبيّة، وكل الذين قرؤوا أعمال مكيافيللي بالنّسخة الشعبيّة التي وزّعوها في الأسواق. وذهب منظّر معارضة المعارضة إلى الاستشهاد بشيء كتبه مكيافيللي كردٍّ على هذه الاقتراحات «يجب أن يكون معلوماً أن لا شيء أصعب من إعادة تنظيم، أكثر نجاح مشكوك فيه، أخطر عمل للاستمرار فيه، من البدء في تغيير دستور الدولة». كان أمراً صعباً على المنظّر، فلم تكن النسخة الشعبيّة لأعمال مكيافيللي تحتوي على ما يناقض ذلك التبرير. لذا، اضطر لزيارة أصدقائه الذين لا يزالون يمتلكون كمبيوترات. الجزء الأصعب هنا كان إيجاد برنامج «إنكارتا» على هذه الكمبيوترات - الموسوعة التي تأتي على شكل برنامج في الكمبيوتر. ولأن الإنترنت قد انهار تحت ضغط المعلومات وانتشار القرصنة، فقد حافظ مَن امتلك الإنكارتا على نسخته كسرٍّ منزليّ، كنوع مخللات نادر. فمن حاول، في لحظة طيش محظوظة، أن يدخل أرشيف الإنترنت، تظهر عبارة:

Dear Encarta user, kindly note that your copy is pirated. Therefore, we are going to shut down any request from this IP address and close your Encarta account. That means you will not be able to use this copy again.

وبالطبع، فقد اشترى الجميع نسخته المقرصنة من محلات بيع الأفلام والبرامج الرخيصة في وسط البلد. ومَن أراد المحافظة على الإنكارتا، كان عليه التضحية بالدخول إلى

facebook.com/the.Boooks

أرشيف الإنترنت المقرصن أصلاً، والممتلئ بنشرات أخبار القراصنة المزيّفة. أول ضحيّة كانت wikipedia.org - الموسوعة الضّخمة على الإنترنت، والتي يستطيع أي شخص إضافة أو تعديل أو محو أيّ معلومة فيها. هذا كان متوقعاً بالطبع، حتى أن المنظّر قام بتعديل بعض الأمور أحياناً. أمورٌ تافهة ولا يمكن ملاحظتها من مستخدم إنترنت عادي ومغبون بكمية المعلومات الهائلة: اختلق جزيرة في المحيط الهادئ وعيّن صهره رئيساً لوزرائها، قام بإضافة جملة إلى قانون الأحوال المدنيّة تلزم المراجعين بشراء كأس قهوة واحد، وكعكة بالبيض من العربات التي تقف على باب المقرّ بجبل عمّان. قام باستحداث خطٍّ لباص سريع التردّد يقطع عمّان من شمالها إلى جنوبها في آخر الليل. وعندما استيقظ في اليوم التالي نسي أن يستكمله. قام باستحداث مناصب وهميّة، مثل: المدقّق اللغوي الخاص بالأرقام المكتوبة كتابة - وليس رمزاً، في وزارة التخطيط. أمور تافهة وبديهيّة لا يلاحظها أحد، ويتعامل الجميع مع تغيّرها على أنها حقيقة مطلقة ومتداولة. فكما أن المعنى يفقد نفسه عند التكرار، تفقد المعلومة تأثيرها عند الوصول إلى أكبر عدد من الأشخاص. بذلك، تصبح المعلومة عاديّة وممجوجة ومعروفة. فلم يعد الوصول إلى المعلومة أمراً صعباً، واختفت مناصب الباحثين من قوائم البحث عن الوظائف. وتدريجيّاً، اختفى المنصب من مؤسسات الأبحاث والدراسات، والوزارات، والشركات التجاريّة ومكاتب الترجمة. ثم انهارت

facebook.com/the.Boooks

لجامعات. لم يعد أحد يرتاد الجامعة للدراسة، فلم يكن هناك ـا يستدعي الذهاب إلى مبنى والانسحاق مع عدد كبير من لطلاب الذين تمتصّهم تلك المباني للجلوس أمام شخص يدّعي ـعرفة جميع المعلومات. في آخر السنوات، قبل انهيار لجامعات، كان صعباً على المدرّسين مجاراة الطلاب الذين كانوا يتحققون من كل معلومة على الإنترنت لحظة صدورها في الفصل. فَقَدَ الزمن معناه. وتدريجيّاً، اختفى مفهوم الزمن من مصطلحات تبادل الكلام اليوميّ؛ فلم يعد أحد يقول: هذا يوم طويل، أو: قضينا سهرة طويلة من المغرب إلى طلوع الشمس. أصبحت الشمس مجرّد قرص مضيء يشرق ويغرب من دون ملاحظة. حتى إن القليل فقط، القليل منّا، القلة التي احتفظت بالساعات اليدويّة وساعات الحائط انتبهت، بعد عدّة أيّام، إلى أنّ الشمس لم تشرق منذ أسبوع. كان ذلك إنذاراً خاطئاً بالطبع، فقد اندهش هؤلاء من إدراك الجميع لهذه الحقيقة. وفسّرها الجميع، أيضاً، بجملة واحدة: ذلك كان متوقعاً. فقد انحرف الكوكب عن معياره. ستغيب الشمس لمدة شهر قبل أن تعود. ولم يقم أحد بتفسير السبب. فقد أصبحت المعلومة متداولة إلى حدِّ الملل. وأصحاب الساعات فقط حافظوا على إحساسهم بالزمن والمعنى. وأصبحوا يتداولون، سرّاً، مصطلحات الوقت. لذا، قاموا بجمع كلّ ما يعود إلى ما قبل هذا العصر: كتب ومجلات وصحف. تلفزيونات وأفران تعمل على الغاز (كان الحصول على الوقود أكبر سرٍّ لأصحاب الساعات)،

facebook.com/the.Boooks

نباتات تنمو ببطء بالماء وبالسماد، أقراص CD مسجل عليها 6 أو 7 أغانٍ على الأكثر. وكان أكثرهم حظاً من امتلك CD مسجل عليه مقطوعتان أو ثلاثة فقط، فعندها فقط، يستحيل الزمن شيئاً واقعياً وملموساً. عندها يمكن مراقبة القهوة وهي تغلي لوقت أطول، وممارسة الجنس لوقت أطول، ومراقبة الريح وهي تجزّ الغبار عن الطرقات، وتأتي ببعضها إلى غرف المنزل. وهذا ما يذكرني؛ كانت أعظم نشوة لأصحاب الساعات هي تنظيف المنزل أثناء الاستماع إلى الموسيقى. وهذا ما كنّا نفعله في المنزل رقم 29، شارع أحمد فهمي، اللويبدة. أراقب نوال وهي تكوي زي لويس بسعادة كبيرة. كنّا، في الواقع وفي الوقت الحالي، مجرّد طفلين يلهوان بما ركله باقي الأطفال. نعم، كنّا من أصحاب الساعات. طفلان نراقب الجميع ينصرفون عن عالمنا الموقّت بالموسيقى. عالمنا الممل والبطيء، المتروك كمزبلة على أطراف المدينة. نحن في المنزل رقم 29، شارع أحمد فهمي، اللويبدة، نحتال على الحب ونسمّيه، على غفلة من الوقت، حبّاً. كان الشعور بالكآبة أمراً يستدعي الاحتفاء فنقوم بإخراج أقراص CD خاصة بهذه المناسبة ونشغلها في الكمبيوتر (بعد أن اختفت قطع غيار مشغلات أقراص الـ CD) ونهيئ جلسات مالنخوليّة يصبح للقهوة فيها طعم خارق، ويصبح تدخين سيجارة ومراقبة دخانها يعلو ويملأ الغرفة أشبه بالاستمناء البطيء.

facebook.com/the.Boooks

كنا نسمي الحب حباً، نحتال على الزمن وعلى كل لمعلومات التي تؤكّد أشياء متناقضة، وكل ما يقوله لنا الناس، شاريع الأصدقاء الذين كان وجودهم ضرورياً لنا. أمور مثل أن لحب ليس سوى مادة كيميائيّة تنفد بعد سنوات، كتب ضخمة عن أهمية الصداقة في الحب، برامج تلفزيونيّة تعالج قضايا لخيانة وتسهّل للمحبّين العيش ضمن نظام خاص تحسب فيه كل كلمة وكل حركة، كاماسوترا عصرية بوصفات جاهزة: وضعية لكلب تضمن الوصول إلى G-spot، وضعية الفارسة تمنح لمرأة ولوجاً ألذ للقضيب، بشكل يمكّنها من ممارسة سيطرتها في الوقت نفسه، طرق مضمونة لإيلاج القضيب في فتحة المؤخرة، أو الفرج، أو فتحة الشرج، اللذة الخلفية، طيّازي، من ورا، فرنسي- بس من ورا. كان مجرّد التفكير في هذه المصطلحات كفيل ببرود جنسي يستمر أياماً، لكننا نحن، في المنزل رقم 29، شارع أحمد فهمي، اللويبدة. نسمي الحب حباً، نحتال على الوقت كي لا يمتصّنا. نستمعُ إلى الموسيقى كما لو كنا وحدنا في هذا العالم. كنّا فعلاً آخر اثنين في هذا العالم من يستمع إلى الموسيقى: البطيئة والمملة والهائئة في لذة التكرار، لكنه كان تكراراً من دون ذوبان، تكرارٌ يمكننا من نسيان الكلام حيناً، والموسيقى حيناً، وصوتها مرات أخرى، وسقف المنزل، والشمس التي غابت في البرد، والدبّابة التي تحتلّ الشارع، وجميع احتمالات اقتحام المنزل، وقلّة مخزون الخضار، والسجائر.

facebook.com/the.Boooks

كنا نحاول، عمداً، ألا نحفظ جميع كلمات الأغاني. عرفنا ذلك مبكراً، كلٌّ وحده قبل أن نلتقي. وكانت تلك من الأمور القليلة التي نحتفظ بها لأنفسنا من دون أن نخبر أحداً. مدركين في الوقت نفسه أن الآخر يدرك ذلك. ما منح حبنا اشتعالاً خافتاً تمكن العودة إليه بسهولة وتأجيجه عند لحظات الفتور المالنخوليّة. واتفقنا على ذلك بالتخاطر فقط: فلنكن حذرين جداً عند الكشف عن كل حقيقة، لئلا تصبح معلومة جاهزة ومعلّبة لننساها بعد ذلك. نقولها على مهل، وبمقدِّمات طويلة، نلقي بها أثناء الحديث كشيفرة حربية. ومن الخطر جداً أن نتوقّف عن الحديث بعد أن نقول تلك الحقيقة مباشرة، إذ من المؤكّد أنها ستبقى تدور في الغرفة حتى تصبح لها شكلها وسيكون المكان بعد ذلك مؤشّراً صارخاً على هذه الحقيقة فنملّ منها ونتجاهل المكان، وتدريجيّاً تصبح الغرفة متروكة ولها شكل الحقيقة، واضحة وخارجة عن الزمن، محنّطة، متحفاً للساعات المتوقفة عن تعداد الزمن. ولا يمكننا، نحن أصحاب الساعات، أن نرضى بذلك أبداً. ووجدنا أنفسنا في هذا المنزل، أطفالاً، نكتشف الأشياء من البداية بلذّة أول من صنع ناراً، واكتشف الموسيقى.

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

9

بدأت الموسيقى صدفة، ككل الأسرار الكونيّة التي يتمّ اكتشافها فجأة ومن دون قصد: ببطء، ومن دون حساب للزمن. البداية كانت تقليداً أحمقَ لإيقاع الطبيعة: صوت المطر، أصوات الحيوانات، صوت تكسّر أوراق الشجر تحت الأقدام. كان سماع همهمة الإنسان الأول وهو يحاول تقليد أصوات المشي أمراً عاديّاً. ومن ثم لاحظ هذا الإنسان الزمن في الإيقاع: مشي الغيوم الهادئ بلا أقدام في السماء، الزمن الذي تحتاج إليه العصافير لبناء عش: الطيران لإيجاد قشّة والعودة إلى العش، وضع القشّة في مكان فارغ ثم العودة. ثم الفرق بين صوت المشي والركض. كان أمراً عادياً أيضاً التفريق بين القادم مشياً والقادم ركضاً، في ذلك الكهف، بينما يراقب الإنسان الأول العالم يسير ببطءٍ. وتدريجيّاً كان نداء كل عائلة شيئاً خاصاً بها، اخترعوا نداءات خافتة، طويلة، بطيئة، عالية، ناعمة. اليد أولاً، أو الأقدام. الضرب على حجر بحجر، أو القفز على الأعشاب والأوراق الجافة، ونقلوا ذلك إلى الكهوف. يجب أن يكون آنذاك شخص قرر في لحظة حمقاء أ

facebook.com/the.Boooks

قلّد تلك الأصوات بصوته. ولعله قرَّر مصاحبة إيقاعات الأيدي والأقدام بالصياح. ولأنه يجب أن يكون كل اكتشاف أمراً شخصياً، ملتصقاً بشخص، منبوذاً وغريباً وجديداً على العالم الذي يخشى الجديد، فقد قرّر هذا الشخص اختبار ذلك وحده: نفصل عن جماعته في سبيل لذّة ترديد أصوات حمقاء. وقد قضى صاحبنا وقتاً لا بأس به مقلّداً أصوات الحيوانات. ورغم أنه قضى معظم هذا الوقت محاولاً تقليد تغريد العصافير، فلم تكن محاولاته بلا جدوى. لم يتقن لغة العصافير بالتأكيد، لكنه اعتقد ذلك. وعند عودته إلى جماعته بعد عدة سنوات، تفاجأ بأن الجميع يطلقون همهمات تجاه الآخرين: يفتحون أفواههم بأشكال مختلفة ويطلقون أصواتاً مضحكة. كانوا قد اخترعوا اللغة، ولم تكن موسيقى. لكن، في ذلك الوقت، لم يكن هناك فرق بينهما. فما الحاجة إلى الموسيقى وقد عرفوا للتو كيفيّة التواصل: أصوات مضحكة مصاحبة لتصفيق وإشارات بالأيدي والأقدام وصفير. هذه كانت لغة، ولم تكن موسيقى، لكنها كانت الطريقة الوحيدة للوصول إلى إيقاع هارموني: وجود الضد.

طريق الوصول إلى الإيقاع الهارموني الذي بدأت به الموسيقى مليء بالنظريّات والميثولوجيّات والخرافات، ومنها ما هو مثير للاهتمام. فقضية تحريم الموسيقى في الإسلام (دوناً

facebook.com/the.Boooks

عن غيره من الديانات) يبدو أنها تستند إلى قصة خرافيّة، ولا يمكن معرفة إن تم اختراع هذه القصة لاحقاً، أم أنها وُجدت قبل ثورة مكّة الدينيّة. القصة تقول: «عندما مات آدم، تفرّق أبناؤه ما بين السّهول والجبال. وقد تمتع رجال الجبل بالجمال، وحُرمت منه نساؤه. بينما كانت نساء السهول جميلات، وقدِّر على الرجال الدمامة. آنذاك، تنكّر إبليس على هيئة عامل عند أحد رجال السهول. وفي يوم، قطع أحد أغصان الأشجار وصنع منه مزماراً، وبدأ بالعزف عليه. فذُهل الجميع، وبنشوة الموسيقى، تضاجع رجال الجبل مع نساء السهول، ونساء الجبل مع رجال السهول».

قد يكون المزمار أول آلة موسيقية فعلاً، إذ رغم أن آلة النفخ Didjeridu التي عزف بها سكّان أستراليا الأصليين تعود إلى ألف وخمسمائة عام فقط من الآن، إلا أن اكتشافاً آخر سيعطي الـ Didjeridu أهمية كبيرة، وهو اكتشاف ما يمكن اعتباره أقدم آلة نفخ حتى الآن في كهف بسلوفاكيا في العام 1995. وقد قدّر مكتشفه أنه يعود لـ 43 ألف عام. لكن، وكالعادة، كما ترون، فقد تم التشكيك في أن الاكتشاف آلة موسيقيّة، فقد رجّح البعض أن لا يكون إلا مجرّد عظمة مجوّفة لإنسان بدائي.

- هل حديثي ممل؟

لا لا أبداً، تقول نوال. وأوافقها. تحدّث لويس لفترة

facebook.com/the.Boooks

طويلة فعلاً. ولأننا لم نكن نثق في أنه ليس من أصحاب الساعات، فقد أخفينا ساعاتنا التي نرتديها في المنزل فقط، لكن نوال قالت إنه already رأى واستعمل جهاز الربو. قلت من الممكن أنه تجاوز عن الموضوع بسبب حاجته، لكنها نبّهتني مرة أخرى: لو كان من البقية لما بقي مصاباً بالربو.

هذا صحيح. فقد استعملنا ميزة العصر هذه المرة فقط. كانت نوال تعاني بشكل رهيب، أكثر ما يمكن لإنسان أن يحتمل. كل مرة يصبح وجهها فيه أزرق أقوم بتوضيب خزانة ملابسها. تضيق الحويصلات في شعب الرّئة، فيغلق الطريق أمام الأوكسجين، تحاول أن تشهق الهواء فلا تستطيع. يقل الأوكسجين، ويصبح وجهها أزرق. كنت أقف مذعوراً أمامها، محاولاً أن أبدو مسيطراً، فأمسكها أو أجرّها أو أمشي معها إلى الشارع لنستقل سيّارة أجرة إلى المستشفى. وعندما نعود، تذهب إلى النوم. وعندما أسمع تنفسها يستقر أفتح الخزانة، وأقوم بشمّ ملابسها.

قرّرنا أخيراً الذهاب إلى مركز معالجة الأمراض المزمنة. كان علينا أن نقف في طابور طويل رأيناه في سيارة الأجرة التي أقلتّنا إلى المركز. فاوضنا الكثيرين على الذهاب إلى المركز، لكنهم رفضوا بحجّة الازدحام. قالوا لنا إن الطابور قد بدأ بالمئات عند الافتتاح، ثم تضاعف في الساعات التالية. ولم

facebook.com/the.Boooks

تجدي فكرة حراس الأمن بجعل الطابور يلتفّ حول المبنى، لأن الأدوار تداخلت في النهاية، وأصبح الناس يأتون من كل جهة محاولين إيجاد بقعة في الطابور. إضافة إلى أن رائحة التبوّل والبراز أخذت تنتشر بشكل كبير. وأضافت المطاعم والمتاجر التي أقيمت بسرعة حول المركز مشاكل أخرى. ما أدى إلى طوابير ملتفّة أخرى. وعند الطعام يصبح الناس عدوانيين بشكل كبير. جذب هذا الأمر باحثي الأنثروبولجيا والسوسيولوجيا، فأقاموا هم الآخرون مكاتب ومراكز أبحاث حول المطاعم والمتاجر. ولمّا كان التجمّع أشبه بمدينة يحتاج كل واحد إلى شراء احتياجاته طيلة الوقت (لأنهم لا يستطيعون النوم)، انتشر شباب وصبايا بين الناس عارضين خدماتهم: شراء طعام، إرسال وتوصيل رسائل تطمين من الأهالي الواقفين خارج الطوابير، جلسات استحمام، تنظيف البول والبراز من تحت الأقدام. كان أجرهم زهيداً، لأن كل الواقفين في الطابور كانوا ممّن عجزوا عن دفع ضريبة الأولويّة. لذا، ضحّى أولئك الشباب بنصف المبلغ المقترح في البداية في سبيل الحصول على زبائن أكثر. كبرت أعداد العصافير - هكذا كانوا يسمّونهم، لأنهم يحملون صفارات للإعلان فيها عن أنفسهم للمحتاجين إلى مساعدتهم. وما حدث لاحقاً كان فظيعاً. فقد أعطى عصفور صفّارته لأحد الزبائن حتى يستدلّ عليه عند رجوعه. إذ طلب منه الذهاب إلى منزله في المدينة والمجيء بدواء نسيَه هناك: الدواء نادر، قال للعصفور عندما أخبر

facebook.com/the.Boooks

بافتتاح مستودع للأدوية حول المركز. وعندما مات الزبون قبل أن يأتي، التقط مَن وراءه في الطابور الصفارة وأخذ يصفّر للمساعدة. وانتشرت الصفّارات بعدها بين الناس: صفّارات بأصوات طويلة، متقطّعة، حادّة، غليظة. وانتشر الضجيج في المركز وما حوله. ضجيج هائل من كل جهة، حتى كأن الطوابير تحوّلت إلى مسارات طويلة لصراصير ليلٍ كبيرة لا تكف عن حكّ أجنحتها ببعضها. حينها، كان رجل أعمال يجلس في مكتبه مستقبلاً بعض الزوار الذين أخبروه عمّا يحدث في المركز. رجل الأعمال هذا كان من أصحاب الساعات، فقد حافظ على مواعيد زوّاره (من أصحاب الساعات) أيضاً، وحافظ على سكرتيرته، وعلى أعماله عبر الهاتف وعلى مكتبة متوسّطة الحجم في مكتبه. زيّن المكتبة بالكتب ذات الكعوب الجميلة في البداية، لأن الكتب ترتّب على هذا الشكل غالباً. وأمضى عدّة ليالٍ وهو يرتب الكتب حسب الأبجدية، لكن الألوان لم تكن متناسقة، فأعاد ترتيبها حسب ألوان الكعوب. وعندما قال له زائر بأنّ مكتبته تشبه لوحة كلاسيكيّة، قرّر الاستغناء عن هذا الترتيب. كان يودّ بشدة أن يكون صاحب ساعات حقيقيّ، ليس لأنه لا يريد المحافظة على حسّه بالزمن، لا يهمّه ذلك، لكنه لاحظ أن تجارته التقليديّة (عندما تأخّر التحوّل إلى العصر الجديد) تجتذب أعداداً أكبر من أصحاب ...ات، إضافة إلى أنّ جميع أفراد عائلته من الذين لم ...لوا. ولأنه رجل عائلة وفيّ ومحب وودود، لم يكن

facebook.com/the.Boooks

باستطاعته تحمل الانفصال عن عائلته. كان قادراً على تجاوز تفاصيل ممارسة فرد من أفراد السّاعات، هذا من أحد أسباب نجاحه في المهنة: كان شخصاً عمليّاً ولا يتوقّف عند التفاصيل. لم يستسغ الموسيقى أبداً، ولم يقرأ شيئاً بعد تخرّجه من الجامعة. كان يرى شيئاً فيذهب باتجاهه، محظوظاً بحدس قوي يعينه على خوض محادثات ومفاوضات تجاريّة من دون الدخول في التفاصيل. ولهذا احتاج الطاقم الذي يوظّفه حتى الآن، إلّا إن ملاحظة الزائر كانت كفيلة بإيقاظه: أنا لست صاحب ساعات، ولست متحوّلاً، أستطيع أن أكون أي شخص بلا مبادئ، فما الذي أفعله هنا؟ وجاء الخبر من المركز بمثابة خلاصه، وقرر افتتاح مصنع لإنتاج الصفارات هناك.

شعر الكثير من الواقفين في الطوابير بالانزعاج من أصوات الصفّارات. ولولا أنه لم يتم افتتاح فندق قريب لماتوا من الضجيج بالتأكيد. وكان على هؤلاء دفع مبالغ أكبر للعصافير حتى يحلّوا محلّهم. لكن فيما بعد، أخذ هؤلاء العصافير بالموت من عدوى الأمراض. أعداد كبيرة اضطر معها المسعفون في المستشفى التي افتتحت في مكان قريب أيضاً إلى العمل لساعات متأخرة. ولمّا كان راتب العمل المتأخر مجدياً، فقد أجهدوا أنفسهم حتى المرض والموت. ذلك حين أصبحت للمدينة الجديدة - مدينة المركز، مقبرة. عندها فقط انتبه الحرّاس إلى الخطأ الذي ارتكبوه. فأعادوا تنظيم الطابور ليكون

facebook.com/the.Boooks

على خط واحد. وبطبيعة الخبرة، فقد قاموا باستغلال انحسار الطوابير إلى الخلف لإعادة ترتيب الطابور. وبالاتفاق مع إدارة المركز، قرروا فرز الناس حسب أمراضهم: طابور السرطان، الإيدز، ضغط الدم، السكري، الروماتيزم، الزهايمر، متلازمة داون، الباركنسون، العقم، التشوّهات الخلقية، الشّلل بأنواعه، أمراض القلب، أمراض الرئة والجهاز التنفسي، العجز الجنسي، أمراض العيون، إعادة الأطراف المبتورة، الأمراض الباطنيّة. وهنا كانت المشكلة، إذ التحق بطابور الأمراض الباطنيّة أكبر عدد من الموجودين، وبدأ الاحتجاج أولاً من مرضى الكلى الذين شكّلوا الغالبية، فقد أرادوا طابوراً خاصاً بهم. لكن ولأن حراس الأمن لم يكونوا ينصاعون إلا لأوامر الإدارة مباشرة، فقد كان على أحدهم أن يعود إلى المركز. وعندها انتبه إلى المسافة التي قطعوها ليعيدوا تنظيم الطوابير. ولم يعد بالإمكان إجراء مكالمات هاتفيّة، فقد توقفت شركات تزويد خدمة الاتصالات اللاسلكيّة منذ زمن بعيد. إذ لم تعد هناك حاجة إلى الاتصال بعد أن فقد الزمن معناه، ولم يكفِ أصحاب الساعات لاستحقاق الميزانية التي تكفي باستمرارها، فأقفلت. ولأنه لم تقترب أي سيارة من المركز خلال الفترة الماضية بسبب الضجيج والرائحة والأمراض، اضطر الناس إلى المشي أياماً للوصول إليه. وهكذا، كان على أحد الحراس أن يعود إلى المركز مشياً. ولو أن أعداد الذين يتساقطون موتى في الطابور أقل من الذين صمدوا، لكانت فكرة أن ينقل كل شخص

facebook.com/the.Boooks

إلى مَن أمامه هذه الرسالة وصولاً إلى المركز ومن ثم العو
ناجحة. إلا أن أمراً جيداً كان يحدث: فقد تم إغلاق قس
الخدمات المستقبليّة التي يتّقي خلالها الناس الكسور والرش
والسعال ومعظم الأمراض الأخرى طيلة حياتهم. وبالطبع
كانت خدمة مقابل مبالغ كبيرة، لذا لم يستطع إلا الأثري
الحصول عليها. وعندما انتهى كلّهم من ذلك، تم إلحاق ه
القسم بباقي أقسام المركز، ما وفّر طاقة استيعابيّة أكبر بكثير
ربما الضعف. لأن ذلك القسم كان مصمّماً بشكل خاص
للأثرياء. وبهذا، بدأت الطوابير بالانحسار إلى نصف
وأصبحت الخدمات أسرع بكثير، ولم يعد أحد يحتاج العصاب
الذين مات أغلبهم، والتحق البقية بالطابور.

استغربنا من أن سائق سيّارة الأجرة تابع طريقه إل
الطابور، وعندما نزلنا عند نهايته، ركن سيارته، والتحق بطاب
السرطان. احتجنا يومين للوصول إلى المركز، انتابت خلاله
نوال أربعة أزمات ربو. كان الجو لا يطاق: غبار وهواء مريض
وروائح قذرة في كل مكان. اضطررنا لتقاسم أنبوبة أوكسج
مع مريض بالقلب في الطابور المجاور مقابل أن أنظّف ملاب
من البراز والبول مرتين في اليوم، إضافة إلى نقل أنبو
الأوكسجين من طابوره إلى طابورنا وبالعكس كل ساعتين.
يكن أمراً صعباً، إلا أنني كنت أريد أن أبقى بجوار نوال ط
الوقت، فقد عادت علاقتنا إلى طفولتها: زمن التعلّق الأبوي

facebook.com/the.Boooks

زمن الالتفاتة الوادعة والهادئة، والابتسامة التي تعني أشياء كثيرة في الوقت نفسه، ارتجافة اليد، واليد التي تشتبك مع الأخرى عند التقبيل على الفم. وقد كانت هذه العملية تستهلك نصف ساعة على الأقل، يكون فيها الطابور قد تقدّم ثلاث خطوات.
كان عليّ أولاً أن أدع نوال والمصاب بمرض بالقلب أن يستنشقا، بقوّةٍ، آخر نفسٍ قبل أن أنزع القناع. ثم أغلق مجرى الأوكسجين وأنظّف القناع بالماء. حملنا معنا عبوة ماء للشرب ولقضاء الحاجة، للتشطيف أعني، إذ سمعنا عن تقاعد العصافير، فلم يكن هناك من داعٍ لنسيان مثل هذه الأمور.
إضافة إلى الماء، اصطحبنا سلة طعام: زعتر حلبي وزيت زيتون، لبنة، خبز، أكياس شاي وبابونج. الأمر الأصعب كان غلي الماء لتحضير الشاي والبابونج، سنجد من جلب غلاية - قلت قبل أن نغادر المنزل. وقد حصل ذلك فعلاً، لكن كان علينا أن نقايض شيئاً مقابل كل كأس ماء مغليّ. فكّرنا كثيراً، فلم نكن نمتلك الكثير للمقايضة، كما لم تكن نقودنا تكفي للعودة إلى المدينة بعد إجراء العمليّة. لذا مقابل كل كأس ماءٍ مغليّ كان علينا أن نقايضه بكأس آخر. وقد استهلك حساب توزيع الماء وقتاً طويلاً أيضاً: ثلاثة كؤوس من الشاي ومثلها من البابونج. استغنت نوال عن كأسي ماء من مجمل العشرة كؤوس التي نشربها في اليوم، ومع مضاعفة كؤوس الشاي والبابونج إلى مثلها للمقايضة، أصبحنا نستهلك عشرين كأس ماء في اليوم، إضافة إلى كأس ماء مغلي كل ساعتين لتعقيم قناع

facebook.com/the.Boooks

الأوكسجين، وضعفهم للمقايضة فأصبح المجموع أربعـ
وأربعين كأساً. كانت نوال تسترخي فجأة أحياناً؛ تفقد القو
على الحديث والحساب والجدل والمناكفة حول تقليل حصته
من الماء. تجلس على الأرض ممسكة بساقيها وتنظر في
الغباش الذي تراكم على زجاج نظارتها من دون أن تقوى علي
مسحه. ليس لنوال عادات سيّئة، أعني تلك العادات التي
نرتكبها عندما نكون وحدنا. وهي كانت وحدها في المرض
طفلة محبوسة داخل رئتين متهتكتين، كانت الدنيا تشدّها
تفاجئها وتسحرها بكل تفاصيلها. وهذا يختلف عن التفاؤل
ليس الأمر مجرّد تفاؤل أو تشاؤم، الدنيا بالنسبة إليها ممرّات
معتمة وسراديب تؤدي إلى سراديب، وهي الوحيدة التي تمتلك
مصباحاً بضوءٍ (جميعنا يمتلك مصابيح). وهي، بهذا الضوء
مدفوعةً لاكتشاف تلك السراديب بقسوتها وظلمها، بخرائبه
وجماجم الذين خفتت أضواؤهم. وكان عليها أن تتخبّط كثير
وتقع وتصطدم بالتائهين قبل أن تسير وتخبر من تلقاه في الم
القادمة عن أولئك الذين ضلّوا طريقهم بطريقة لن يفهمها إلا م
سار في تلك السراديب كلها. وعندما يشتدّ عليها المرض
يخفت ذلك الضوء حتى تجد نفسها وحيدة تماماً. مسحوب منه
النور. شاحبة. تومئ للعالم بإشاراتٍ لا يفهمها فتسخط عليه
كانت أحياناً تخاطب الله. «خلص» - تقول له، رغم أنها ليست
مؤمنة. لا يتعلّق ذلك بالإيمان، مرة أخرى هذه ليست مسأ
ثنائيّات (إيمان أو كفر هنا)، إنه أمر يتعدى بكثير وجود الله أ

facebook.com/the.Boooks

عدمه. هنا الله ند، قوة كبيرة غير مرئية يمكن تحميلها كل ما يحدث في الأرض من خيرٍ وشر، إله يستمد قوته من غيابه.

وكان الله بالتأكيد غائباً عندما خاطبته نوال وهي جالسة على الأرض ممسكة بساقيها وتنظر في الغباش الذي تراكم على زجاج نظارتها من دون أن تقوى على مسحه. شعرنا جميعاً، نحن الواقفين في الطابور،على بعد يومين من المركز الطبي، أن العالم لن يضرّه موتنا. وأصبحت فكرة التعافي من الأمراض تضاعف من ألم المرضى. وشاهدنا، بغبطة وغيرة، الكثيرين يخرجون من الطابور مبتسمين. آنذاك، بدَت المدينة مكاناً بعيداً جداً، مجرّد أضواء وشوارع وبناياتٍ تفيض عن السكّان. مكاناً خاوياً كورشة نجارة مهجورة. لا أنتمي إلى عمّان، «عمّان موجودة فقط في مخيلتي. عمّان لا تكون إلا عندما أفكّر بها»، تقول نوال. المدينة التي تستيقظ فيها وحيداً وبلا ذاكرة لا تستطيع أن تنتمي إليها. العمارات البيضاء والشوارع النظيفة لا تستطيع أن تمنحك ذاكرة. بعد يومٍ طويل، ندخل إلى علبنا الجميلة، نغلق الأبواب على المدينة، ننام ثم نصحو لنجد صفحات بيض ألقيت إلى جانبنا. لا تستطيع أن تبني علاقة مع هكذا مكان. ليس ثمّة ورشات تستطيع أن تصف هكذا مكان.

facebook.com/the.Boooks

10

يحدّثنا لويس أثناء انتظارنا لنشرة أخبار الثامنة. سيبثّو مقاطع من حفل افتتاح مقر الفنون الشعبيّة بالتأكيد، قال لويس كنا نجلس في انتظار الأخبار في ذلك المنزل، شارع أحمد فهمي، منزل رقم 29، الطابق الأرضي، بجوار الدبّابة الأولى في الشارع. لم نمانع، في البداية، من إعطاء الجندي زجاجة ماء بارد ظُهر كل يوم. الجندي الذي احتفظنا بجثته في المطبخ لعدة أيام كان شابّاً من المفرق. تزوّج حديثاً من صبية لا تتكلّم كثيراً: «أحسن شي فيها إنها شغل بيت»، قال لنا مرة عندما سألته نوال عن عائلته: «أعود كل أسبوعين مرة متمنيّاً أن أجدها حبلى. بحمد الله كلّ يوم إني متجوز زيها من اللي بشوفهم بعمّان». كان أسمر بأسنان بيض بيض أفزعت نوال عندما وجدناه على باب منزلنا ميّتاً، الدم يبلّل أسنانه البيض، بلا أثر لرصاص أو دم على جسده، لطخات دم على فمه فقط. احتفظنا بجثّته لعدة أيام في المطبخ حتى أخبَرَنا من حلّ محله أنهم يشتبهون في فراره ولا يعلمون عنه شيئاً. كان الأمر أشبه بالاحتفاظ بخاروف في الثلاجة. لم نكن معنيين ببيع أعضائه

facebook.com/the.Boooks

ذلك سيكون أمراً سيّئاً. تكلّمت نوال كثيراً عن عائلته وعن زوجته. بكت كثيراً. لم أشعر بالحزن، قتلتني دموعها في أحد الأيام التي احتفظنا بجثته في المطبخ. وَقَفَتْ أمام المرآة وبدأت تضع المكياج من بواقي علبة المكياج التي أهديتها إياها في الفالنتاين قبل أعوام. أدركت فجأة أنها لا تتكلم مع نفسها كالعادة، وإنما تبكي. راحت تشهق وتتحدث عن قصيدة تكتبها عن جثّة في المطبخ، وأنها تفتح الثّلاجة لترى نفسها تحتضن الجثّة وهي تبتسم. عيناي يا آكلتا الزهور. قالت، إن للجثّة عينين جميلتين، لكنهما مدميتان من أكل الزهور، وإنها الآن مفتونة بالجثث التي تنبت عليها الأزهار. وتضع الروج على شفتيها لأنه يحب ذلك.

لم يكن سهلاً التخلّص من الجثة من دون إثارة الشكوك. ولم أرد إشراك نوال في ذلك لأنها تدّعي القوة، بينما يرجف قلبها كفراشة في الجانب الأيسر وراء الرئة التي لو كانت لطفل لاختنق، تحت النهد الأيسر مباشرة. أتحجّجُ أحياناً بجس نبض قلبها حتى أمسّ نهدها، أرفعه قليلاً لتظهر الشامة الداكنة.

أفكّر بذلك وأنا أحتضن الجثة. نوال أحبّت الجثة. لم أكن أشعر بالمنافسة. فقط فكّرتُ أن نوال تريد التهام الحياة بأزهارها وجثثها. لم أكن أشعر بالغيرة لولا أنها راحت تغنّي:

«وجدناك على باب المنزل، الدم يقطر من أسنانك

facebook.com/the.Boooks

وفي عينيك دموع حمر

سألناك عن اسمك، لم تجب

فكّرتُ، أكان ينبغي أن نتصل بطبيب

لكنني استلقيت إلى جانبك

وأمسكتُ بيدك

والآن أنتَ حبيبي.

لقد وقعتُ في حب صبيّ ميّت».

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

11

رحلت نوال. كان ذلك أمراً متوقّعاً. أنت تعرف كيف
يمكن لامرأة أن تغادر ولا ترجع. لم تقل شيئاً قبل أن تغادر
ولم تترك ملاحظة، رغم أنّني فتّشت المنزل عن أي أثر، أ
إشارة، وقضيت أيّاماً أقرأ في دفاترها الصغيرة، وفي ملابس
التي تركتها كلها، وفي علب المكياج الصدئة التي كانت تحتف
بها من دون سبب. ولولا أنّني لم أجد حقيبتها، لشككتُ بأنه
أخذوها.

عدت أنا ولويس من عمارة بنك الإسكان، التي تحوّل
إلى مقبرة المدينة، بعد أن قمنا بدفن الجثّة في إحدى شرفات
لأجد المنزل فارغاً. جو أيضاً هرب. النباتات ذبلت
والسّاعات توقّفت عن العمل، وارتفعت طبقة غبار كثيفة عل
أسطح الطاولات وعلى صدري.

كنت قد أقنعتها بأن تكتب. وفعلاً أمضت الصباح كله ف
الكتابة. كنت أسمعها وأنا أقطّع الجثّة في الحمّام وهي تخاط
نفسها، وتدندن، وتضحك وتبكي. وعندما واربتُ البا

facebook.com/the.Boooks

لأطمئن عليها عندما سكتت لفترة طويلة، وجدتها تكتب وهي تضع رجلاً فوق الأخرى، واضعة أصبع رجلها الثاني فوق الأول، فشعرت بالاطمئنان، وتابعت العمل.

لم يكن الأمر صعباً كما تتخيّل، إذ لم يكن هناك دم بالكميّة التي يمكن أن تتوقّعها. كان الاحتفاظ بالجثّة في الثلاجة ذكاءً. وكان كفيلاً بتجميد الدم الذي سكن عن الحركة أصلاً.

وضعتها في البانيو وفصلت الرأس، واليدين والرجلين من المفاصل. أصعب مرحلة كانت تقطيع الجذع، إذ لم أكن فكّرت بعد بالطريقة التي سأحملها وأدفنها. ولم أكن أريد أن أخرج لأستشير لويس وأنا بهذا المنظر. وكانت نوال جائعة وتردّد بأنها ملّت من الكتابة. فارتجلتُ وقطعت الجذع إلى نصفين من تحت الرئتين، ثم قطعت النصفين إلى نصفين آخريْن. وضعت الأجزاء في أكياس سود، ونظّفت الحمّام، وأخذت حمّاماً سريعاً، وعوّلت على انعدام حساسيّة الشم التي فقدتها نوال إلى الأبد. ثم قمت بطهي بعض الخضار التي بقيت في الثلاجة، وذهبت إلى لويس.

facebook.com/the.Boooks

12

عندما فتح لي الباب ابتسم. وكانت تلك أول مرة
يبتسم فيها. دعني أبالغ وأقول إنها أجمل ابتسامة بدون س
واضح رأيتها في حياتي. لا أعرف إن كنتَ قابلتَ أشخا
متجهّمين. أعني متجهّمين فعلاً وطيلة الوقت، حتى تكاد
تنسى ما الذي يعنيه أن يبتسم هذا الشخص،لكن الأمر لم ي
غريباً، أذكر عندما قمت بتأسيس مشروع «أهلي وجيراني
ذهبنا إلى أماكن مزدحمة لا يراها الناس في عمّان، حيث مة
استمناء السعادة اليوميّ في اللويبدة وشارع الرينبو، كان الت
يقابله في تلك الأماكن. كانت فكرة غبيّة وقادمة من لا و
طبقيّ أوجده داخلي مجموعة أصدقاء جميلين ومصقو
ويبتسمون باضطراد مريب. قلت لهم إنني أريد البدء بمش
يخرجكم من عفنكم الطبقيّ. بالطبع، ضحكوا على الملا
الأخيرة، لكنهم وافقوا في النهاية. لا أذكر من اختار
الاسم الغبي للمشروع، لكنني اكتشفت مع الوقت أنّني أ
عن شخص لم يعد موجوداً. شخص يريد أن يتواصل مع جذ
من خلال تصوير لحظة ملحميّة تبرز التناقض بين عالمين. ل

facebook.com/the.Boooks

تقحم لاعب تنس يرتدي اللباس المخصص لذلك ومضرباً كبيراً مع جيوب منتفخة من الكرات في طابور سرفيس حي البطاريّات بمجمّع رغدان. أو سيدة ترتدي فستاناً أسود قصيراً مع كعب عالٍ تجلس في مطعم السّنبل بالوحدات لتتناول الفول. أو شابّة ترتدي ملابس وحقيبة نادي اللياقة تساوم بائع خضار على بكب في حي الطفايلة. لو تعلم كم شعرت بالخجل عندما عرضنا الصور في مساحة «مكان» أمام أشخاص ينظرون إلى جبال عمّان الشرقيّة كبوستر ليس أكثر. كخلفيّة من ضوضاء وأشخاص متجهّمين وجهلة يريدون أن ينقضّوا عليهم في أي لحظة. المشكلة في أنك لن تستطيع مسّ أي إحساس حيّ في أولئك الأصدقاء تجاه هذه الجذور التي تظهر على السّطح بفظاظة. تقول أن ليس لهم ذنب في ذلك؟ وأنهم ضحايا تجهيل مثلهم مثل البقيّة خضعوا لتصنيفات أصبح التهرّب منها مع الوقت صعباً؟ وأنهم يجدون أنفسهم في الدفاع عن امتيازات ورثوها ولم يصنعوها؟ إذاً، لماذا كنا نُعِدّ جميعاً لما حصل؟ ولماذا عندما حصل ذلك حملوا كل امتيازاتهم وأصبحوا قادة؟ أعلم أنك تريدني أن أتجاهلهم تماماً. ألّا أترك لهم حيّزاً يحتلونني من خلاله، لكن الأمر بدأ منذ زمن، وكلّنا كنا شركاء فيه.

بالنسبة إليّ، أعتقد بأن الأمر بدأ عندما كنت في مدرسة المعتصم بالهاشمي الشمالي. صدّقني، إذا مرّ أحد بهذه التجربة مرة أخرى فسأنصحه نصيحة واحدة فقط: ابتعد عن الحمّامات.

facebook.com/the.Boooks

تبوّل في منزلك، خلف السور، في ملابسك، ولا تدخل الحمّامات. والأهم، لا تدخل هناك لتتبرّز. عرفت أنّه لا يجب عليّ الدخول هناك منذ البداية. عندما كنت أذهب لأشرب من الحنفيات الموازية للحمّامات، كنت أسمع بشكل مستمرّ صراخ طلبة يُغتَصَبون من داخل الحمّامات، وأرى من الباب طلاب آخرين يخرجون منه وهم ملطخون بخرائهم وبولهم. في إحدى المرات، ذهبت لأشرب قبل انتهاء الفرصة، وعندما جا دوري، جاء أحد الطلاب ليتجاوز الدور ويزيحني عن الحنفيّة شعرت بالحنق لأنني انتظرت طويلاً، وكانت الحصّة التالية على وشك البدء، ولا أريد أن أعرّض لنفسي لإهانة المدرِّس فأمسكت به بكل قوتي ورميته على الأرض وبدأت أضرب به إلى أن جاء صديقي وأبعدني عنه وصرخ بي: «أنت حمار بتعرف مين هاد؟ هاني الدهّان. رح ينيك إمك اليوم».

كنا نبلغ بين 12 و14 عاماً آنذاك. وكان هاني الدهّا معروف أصلاً بالشرب وتعاطي المخدرات والبلطجة. وكا تناقل مروره على حارة كفيل بإخلائها. عندما قام هاني ع الأرض لينفض الغبار عن ملابسه كنت على وشك أن أتبوّل على نفسي. وبدا لي وجهه الممتلئ بالبثور وضربات الشّفراد والأمواس قريباً جداً وهو يبتسم ويسألني: «شو اسمك؟». قل له وأنا أرتجف: «أحمد الزعتري». ثم وضع يده على كتفي وجبينه على جبيني، وقال بصوت عالٍ: «أحمد الزعتري: إن

facebook.com/the.Boooks

جدع ورح أسامحك. من يوم وطالع إذا بدّك شي ناديني».
وهكذا حصلت على أول امتياز في حياتي.

كنت أشعر بالخوف المَرَضيّ على أخي الذي التحق للتو بالمدرسة. وكان هاني دائماً على بعد نداء واحد ليأتي ويعنّف كل من يحاول أن يعتدي علينا ويحاول أن يؤذينا. حتى عندما انتقلت إلى مدرسة أخرى لم يكن موجوداً بها، كنت أصادفه كثيراً وأنا أتمشّى أو أركض أحياناً هرباً من شوارع موبوءة، وحتى محظورة. كان ثمن المرور من بعض الشوارع قبلة، أو بعصة. كلّنا كنا نعرف ذلك، وكان من الصعب إخبار أهالينا به. حتى بات طريقة حياة. كنا أولئك المراهقين الذين تترهّل أجسادهم بسرعة ويبلغون أمام الأهالي الفخورين. وكنا أولئك المراهقين الذين تترهّل أجسادهم بسرعة ويبلغون أمام الأكبر سنّاً. كنا نخوض معركتين: واحدة لإظهار التزامنا الأخلاقي، بالخضوع، على الرغم من بلوغنا، للأهالي. والأخرى لإظهار تمرّدنا وخشونتنا أمام الأكبر سنّاً. سقط كثير منا في المعركتين، أو إحداهما على الأقل. أحدهم ممّن كنا نقضي الوقت سويّاً في الحارة لم يحتمل المقاومة طيلة الوقت. فاختار أن يسقط في المعركة الثانية، وعاش أول تجربة جنسيّة مقابل عشر كرات زجاجيّة.

لكن بمجرّد أن أصادف هاني، كان يأتي ليتحدّث معي عن آخر نادٍ ليليّ ذهب إليه، وآخر صديقة هجرته، وآخر مراهق

facebook.com/the.Boooks

حصل عليه. في إحدى المرّات، كان يمشي إلى جانب شخص بعمرنا تقريباً، لكنه كان يبدو أكبر بكثير بقصّة شعر على الصفر، وجسد ممتلئ، وابتسامة ساخرة تتدلى منها سيجارة طيلة الوقت. عرّفني هاني آنذاك على زياد الخاروف، وكانا معاً أمينين في عهد ما بحمايتي.

انتقلت إلى مدرسة قبيلة بن مسعد. هناك حيث شهدتُ طالباً يُقتل أمامي لأنه رفض طلب أشهر بلطجيّة المدرسة بممارسة الجنس معه. هناك، حيث كانت الحمّامات وكر لتعاطي المخدرات والكحول والجنس. وحيث كان لكل بلطجي غلام معروف لا يستطيع أحد آخر الاقتراب منه، لكنني كنت ألجأ دوماً إلى هاني وزياد في وجه المدرّسين المتحرّشين، أ المتواطئين على أفضل تقدير، والمدير المضطهد، وفارضي خوّات المصروف اليوميّ.

في أوقات متفاوتة، كنت أسمع عن توبتهما المقرونة دائم بالصلاة. ودفاعهما عن الجبناء أمثالنا، والمُغتَصَبين، وأولا الأهالي الجبناء أمثال أهالينا. ولاحقاً، وقوفهما في وج اضطهاد مدير مخفر الهاشمي، وفارضي الخوّات عل المحلات، والمتحرّشين بالنَّوَر، وبائعي العربات الذين كان يتحرّشون بأطفال إسكان الهاشمي.

هل تعلم ماذا حصل لهما؟ قتلهما الأمن عندما بدأ ك هذا. لا أحد يعلم ماذا حصل فعلاً. بعضهم تناقلوا أن زي

facebook.com/the.Boooks

كتب على جدار مسجد العبّاس عبارات: «لا للاعتقال التعسّفي»، و«لا للتعذيب في المراكز الأمنيّة»، و«كفاك ظلماً يا كبير». قبل أن يغلق الشارع الرئيس بسيارته، ويصعد عليها، ويلقي خطبة يطلب من أهالي المنطقة بإغلاق محالهم، وتأمين أولادهم، والالتزام بالمنازل.

جاءت كتيبة كاملة وقتلتهما. وبكيت مثلما لم أبكِ منذ زمن طويل. بكيت كمراهق مترهّل لا يزال يرتعب من ذلك الجهنّم الذي كانا موجودين فيه إلى الآن. بكيت لأن القسوة التي حمتني، والتي عاشا بها، هي نفسها التي قتلتهما. لأننا جميعاً شوّهنا أنفسنا إلى الأبد.

facebook.com/the.Boooks

13

عندما دخلت إلى المنزل عرفت سبب ابتسامته. كان لويس يبتسم لي ممتنّاً بعد أن غافلتني نوال وأنا في الحمّام لتذهب وتنظّف منزله. لم أكن أعرف أنها تمتلك الجرأة لتتجاوز العت التي وجدنا الجندي عليها، والدبابة، والتفتيش الروتيني قب قطع الشارع، لكنها ذهبت، والمنزل يبدو نظيفاً فعلاً. وب لويس نفسه نظيفاً ومرتاحاً ببيجامته المخطّطة وشارباه المشذّب وأظافره المقلّمة، وهو يشير إلى الفراغ مبتسماً. لذلك، لم يك من الصعب أن يوافق على مساعدتي. وعندما عدنا، كانت نوا قد رحلت.

لم تقل شيئاً عندما أخبرتها أنني ذاهب مع لويس لأقض غرضاً. ولم تستفسر عن السبب أو الوجهة أو عن الكيـ الأسود الذي لمحته وأنا أضعه في الحقيبة. قالت ببساطة: «د بالك على حالك» وأغلقتْ الباب ورائي.

وعندما كنت أرشي الجندي الجديد على الدبّابة بذر كاملة، لمحتها من وراء الستار وهي تنظر إلينا، كما تبدو إحد

facebook.com/the.Boooks

أجمل النساء وهي تنظر من وراء الستار: بعينيها الواسعتين وفمها المغلق بإحكام، وأصابع يديها الطويلة، والحمرة التي تلوّن سمرة وجنتيها الخفيفة.

تذكّرت هذه اللحظة بعد عدة أيام من عودتنا. كنت أشعر بالتحرّر والغضب في وقت واحد. أنت تعلم ذلك الشعور بالتأكيد. وتعلم كيف يمكن أن يشعر شخص بأنّه تغيّر إلى الأبد. لذلك، ادّعيت في البداية أنها لا تزال موجودة، وأنّني لا أزال أوقظها في الساعة السابعة وعشرة دقائق. وأننا سنشرب القهوة ونلعب لعبة السجائر. لطالما كنتُ أصفن بطريقة تدخينها: كيف تمسك بالسيجارة من نصف فلترها البنّي وتضع الباقي في زاوية البنّي من شقّ شفتيها. كنتُ أصفن كثيراً بمرآة نفسي. أصفن حتى يحمرّ خدّاها. كأنني أراها لأول مرة. أو كأن نجمةً ميّتةً، مثل تلك التي تلمعُ فوق شعري غير المغسول، تنظرُ إلى ماضيها. كان كلّ الإرهاق والتوتّر الذي يغمر أعصابي ينسحب بسرعة إلى حيث تتعب. إلى حيث يمكنني أن أراها وهي ترفع السيجارة من نصف فلترها البنّي وتحرّك يديها وتدندن أغنية نسعمها سويّاً. ادّعيت أنّني لا أزال أفكّر في شكل قدميها على الأرض. أنّني أفكّر فيما إذا كانت حافية لتتحرّك مخيّلتي، أو أنّها ترتدي صندلاً لتتحرّك يداي. ادّعيتُ بأننا نتفاوض على فرد شعرها بعد الساعة الواحدة صباحاً. وبأن كوافيراً ثرثاراً ينتظر وراء الباب بسشوار أحمر. أنّنا نستقيل من أعمالنا، ثم نخطّط لخراء الأيّام التي

facebook.com/the.Boooks

سنشحد بها. أنّنا سنكون أكثر حريّة. أنّها غداً ستضع ذراعه على ركبتي، وأنّني سأتحسّس طرف لسانها بلساني. أننا لا نزا نرتدي بناطيل واسعة وقصمان زرقاء، ونحتفظ بصورة أجبر مصوّر على التقاطها أمام المدرّج الروماني.

ادّعيت بأنّ ذلك الشّرخ لم يحصل إلا هنا، بالضبط، حيـ يؤلمها. وهنا بالضبط، حيث يرتطم مكعّب ثلج في جوفي كلّـ فكّرتُ فيها.

كان لويس يزورني باستمرار. أحياناً كان يفتح البا ويدخل إلى المطبخ ليخرج منه بعد نصف ساعة وبيده طبـ خضار مسلوقة. كان يحزنني أن يهتم بي أحد، لكنني كنـ مرهقاً ومعرّضاً للهزال والمرض. كنتُ أجلس في السر لساعات وأنا أشتم رائحة شيّ الجثث من دون أن تثير شهيتي استلقيت هناك لأيام وأنا أرى الدخان الرماديّ يلتهم أسقـ البيوت وأعمدة الكهرباء والهوائيّات وخزّانات المياه. كنا نلتـ بعضنا. وكانت هذه الحال طيلة الوقت. استلقيت هناك لساعا وأنا أراقب خطّ الأفق في العبدلي وهو يغرق تحت عشرا الشموس، ويلمع تحت عشرات الأقمار. وعندما ذهـ الدخان، وتبيّن أن خط أفق العبدلي أصبح مجرّد أكوام غـ متناسقة من الطوب والحديد، انتبهت إلى أنّني في خطر، و يجب عليّ أن أغادر قريباً جداً.

facebook.com/the.Boooks

فتحت الباب لأول مرة منذ فترة طويلة لأجد الجنديّ على الدبابة يصوّب سلاحه تجاهي ويطلب مني أن أرفع يداي وأستقر مكاني. فعلتُ ذلك وأنا أنظر إلى الشارع المهجور كليّاً. لم يكن الجميع يخرج إلى الشارع باستمرار بالطبع، لكن كانت ثمّة إشارات على الحياة. كان الشارع مهجوراً عن آخره من عدة أيام على الأقل. والسّخام الموجود على الشارع كان نظيفاً وممسوحاً. سخام في كل مكان: على الرموش الطويلة للجنديّ المرتعب، على الرصيف المهدّم، على كومة العظام بمدخل الشارع، على ثقوب هيكل الدبّابة التي كنا نعرف جميعاً أنها كومة حديد لا أكثر. سخام لا يزال يهطل في أعمدة الضوء الخفيفة على رؤوسنا.

عندما صرخ بي الجندي تردّد صدى صوته لثوانٍ. تأكّد لي آنذاك أنه بقي وحده لأيّام بعد مغادرة الجميع. في الظروف الطبيعيّة، كان ليأمرني بأن أخرس. الجنود من قبله كانوا لا يتردّدون في قرع بابنا والطلب بتخفيض صوت الموسيقى، أو حتى تخفيض أصواتنا. نعم، كانوا يطرقون الباب بأدنى مستوى من الأدب. وكنتُ مفتوناً بقدرتهم على المحافظة على هذا المستوى من الفروسيّة أثناء هذا كلّه. كانوا صارمين بالتأكيد، وقتلوا، كغيرهم، الكثير ممّن أكلناهم وأكلوهم، لكنّهم كانوا يحتفظون بأدنى قدر من التواصل عندما تسمح الحاجة. الجثّة مثلاً كانت ممتنّةً لأننا وفّرنا لها المياه الباردة، وابتسامات نوال

facebook.com/the.Boooks

الطارئة، والمحادثات العفويّة المقتضبة. كان هذا التواصل خيطها الوحيد الذي يشدّها إلى عالم لا تزال تؤمن به بسذاجة في إحدى المرّات دعتنا إلى منزلها في المفرق: «ما بتنهانو هناك. أنا معتبر حالي ضيف عندكم، وحتكونوا ضيوف عندي». بالطبع، رفضنا العرض بكياسة لا لأنه غير منطقيّ، ب لأن الرحلة التي ستستغرق أيّاماً ستقضي علينا بالتأكيد، لكنه كانت تذهب كل أسبوعين، وتعود بعد أسبوع متملّصةً من ك هذا كأنه يجري في مؤخّرة ذهنها.

دقّقت النظر في ملامح الجنديّ لأتبيّن إذا كان هو نفس الذي رشوته بذراع الجثّة، ولم أستطع التأكّد. في ه اللحظات، مجرّد الإشارة إلى جثّة كفيل بإحالتي إلى واحد سألني عمّا أفعل هنا، قلت بأنّني لم أغادر منزلي منذ وق طويل. قال لي بنبرةٍ ألطف بأنني لا أستطيع البقاء هنا: «غا الآن. ألا ترى حولك؟». وكان محقّاً.

طلبتُ منه أن أجلب حقيبتي، فوافق على شرط يرافقني. وعندما دخل إلى المنزل أمامي فكّرت في أن ألتهم كنتُ جائعاً. وعَبَرَتْ ببالي كل الجثّث التي فاتت عنّي، لك التفت إلي وسألني عمّا إذا كنت أحتفظ بشيء للأكل. هزز برأسي، فاهتاج وأخذ يصرخ بي وهو يصوّب السلاح المت إلى صدري قبل أن ينهار على الكنبة وهو يتنفّس بصو مسموع.

facebook.com/the.Boooks

ذهبتُ لأجلب حقيبتي من غرفة النوم. وقفت على الباب ولم أستطع أن أشعر بشيء. لا أعلم إن كنتُ قادراً على أن أصف لك تلك اللحظة. لننظر إليها مرة أخرى: أقف على باب غرفة النوم بحقيبة على ظهري. الجندي لا يزال يتنفّس بصوت عالٍ على الكنبة في الصالون. السّخام لا يزال يهطل على أسقف العمارات والشوارع. الجوّ بارد جداً، ولا أحد يذكر آخر مرة هطل فيها المطر.

غادرت مثلما غادرتْ نوال. وجو. والجيران. غادرت مثلما غادر الجميع: لننجو بأنفسنا، ولنلتهم المزيد من الجثث. عمّا قليل سأهيم في الشوارع بحثاً عن ملجأ. لا أرغب في القتال. ولا أرغب في قتل أحد. أريد فقط أن أتعثّر بجثث وأنجو بجثّتي. عمّا قليل سأهيم في الشوارع مثلي مثل الآخرين: بلا قيمة، كما كان الحال دوماً.

وعندما وصلتُ إلى كومة العظام لدى أول الشارع تذكّرت لويس، فعدتُ وأنا أنظر إلى الجندي جالساً على مدخل منزلي ساهياً. عندما وصلت بموازاته قلت له بأنّني أريد أن أتأكّد من أن جاري قد غادر. لم يردّ. طرقتُ الباب. ولم يرد. وعندما ذهبت في طريقي مرة أخرى، كان الجندي يمشي في الاتجاه المقابل بعيداً عن الدبّابة.

facebook.com/the.Boooks

14

اتّجهت غرباً. مشيت يومين وأنا أختبئ من المتاريـ والقناصين وقاطعي الطرق. لم أكن أعرف لمن ألتجئ بينما كـ الجميع يقاتل الجميع. ولأنني لم أكن محسوباً على أحـ كانت فرصة قتلي أكبر. حاولت الابتعاد قدر الإمكان عـ الشوارع الرئيسة. كنت أريد أن أبتعد عن العبدلي قدر الإمكا هناك حيث بدأ الأمر بإضراب العمال الذين كانوا ينفذّ مشروعَ وسط البلد الجديد احتجاجاً على ساعات العمل الطو وتخفيض الرواتب، ومن ثم إبادتهم بالدبابات، وإعلانها منـ محظورة. بعدها بدأت حرب عصابات لضرب القوّات الموجـ هناك: قنابل مولوتوف، سيّارات مفخّخة، محاولات تسـ للقيام بعمليّات تفجير، عمليّات انتحاريّة. في النهاية تـمّ محاصرة القوات الموجودة وقطع الإمدادات التي كانت تأتي دابوق، ليدخل الناس مسلّحين وغير مسلّحين للاقتصا واحتلال المشروع. ومع الوقت، تمّ دفن جثث العمّال، و المحتلون الجدد لحراستهم. كانوا ببساطة حرّاساً لفكرة مقبـ وأطلقوا عليها: مقبرة معركة آذار المجيدة. وأثناء سيري، كـ

facebook.com/the.Boooks_

أشاهد أرتال الكتائب في طريقها إلى هناك لمحاولة احتلال المنطقة التي تحوّلت إلى رمز للصراع بين الأطراف المتقاتلة.

ومن منزلي في اللويبدة، كنتُ أسمع أصوات القذائف والتفجيرات، وأرى الدخان يعلو وينخفض فوق المقبرة. كانت المحاولات مستمرّة لاستعادتها، وحتى الآن. وكلّما توجهّت غرباً، انخفضت أصوات معركة العبدلي مقابل أصوات معركة أخرى لم أكن أدرك أنني أمشي باتجاهها مباشرة. فمن وادي صقرة، صعدت إلى الدوار الأوّل، ولأتجنّب الشارع الرئيس اتّخذت شارع المطران ومن ثم شارع مانيلا حتى الدوار الثاني.

ومن وراء ركام فندق الرويال على الدوّار الثالث، مشيت في الشوارع الخلفيّة لشارع مستشفى الخالدي حتى مستشفى الأردن. وعندما تسلّقت ركام المستشفى إلى كوّة تتدلّى منها جثّة قنّاص، انفتح المشهد أمام ساحة حرب حقيقيّة: مسلحون يعتلون سيارات مكشوفة يدورون في الشوارع، متاريس تقلّ المسافة بينها وبين متراس آخر، حرائق تندلع بسهولة وبوفرة في كل ما يحيط بالدوار الرابع رغم برودة الطقس. وبين الفينة والأخرى، تطلق المدفعيّة القابعة على مطلع جسر عبدون القذائف باتجاه الطرف الآخر منه. كانت منطقة محروقة؛ منطقة تماس، منطقة تغذية وتعبئة عسكريّة. هذا مشهد لا تستطيع أن تتخيّله، لكنني أعتقد أنّك تنبّأت به كما تنبّأنا كلنا. أو رغبنا به على الأقل، لكن ماذا كنتَ ستفعل لو وجدت بأن ما رغبتَ به تحقّق فجأة؟ الأمر معقّد وساذج أكثر ممّا تتوقّع. أنتَ تتمنّى أن

facebook.com/the.Boooks

يموت جورج بوش مثلاً، أن يتم اغتيال بشّار الأسد ويُنسف مة
البنك الدولي، أن تسقط بقرة على شارون في غيبوبته، أ
تخرج يوماً من المنزل لتجد جميع سيارات الأجرة مقلوبة عل
قفاها، أن تتبوّل على الجالسين في مقهى ستاربكس بمكة مو
من الطابق العلويّ، أن ترسل آلاف الطيور بوقت واحد فوق مَ
كان يشتمنا ويضربنا على دوّار الداخلية في 24 آذار، لكن
الذي سيموت عندما ترى كلباً يحمل نصف رأس طفلة؟ عند
تعبر فوق جثّة مقطوعة الرجلين لا يزال الدم ينزّ منهما؟ عند
تشاهد عائلات وهي تقفز من فوق أسطح العمارات؟ أنا أقو
لك: ستعتاد على الأمر، وفي لحظات معيّنة ستتمنى أن ذلك
يحصل، وسترغب بشدّة في أن تستعيد حاسّة التمييز بين قط
مهروسة في الشارع وأشلاء مكوّمة من لحم وحديد. بين شح
كوسا وقعت على الطريق وعظام تخرج من صدر ورأس شا
بعد أن قفز من عمارة عالية. لنفترض أنّك ستتجرّد من شعو
بالأسف، أو حتى الرغبة في التقيّؤ، لكنّك شيئاً فشيئاً ستد
بأنك حيّ، وأنه ليس من المفترض أن تموت إذا قاومت
وستحاول تربية ذلك الوحش الذي سيمنعك من التحوّل إلى
ليلتهمها الآخرون. هذا ما أفكّر به طيلة الوقت: ألّا أع
أحداً الفرصة ليصل إلى البقعة التي أحتمي بها داخلي. لا ت
فهمي؛ شاركت بالقتل أنا أيضاً كما الجميع. أحياناً كنت أج
على آخر نفس كي لا أتجرّع ألم الجثّة وأنا أقطّع أطرافه
أحياناً أخرى كنتُ أساعد مَن كان يريد أن يقفز عن العمارا

facebook.com/the.Boooks

لكن في بعض الأحيان، كنت أقتلُ لأختبر خطوط دفاعي. مجرّد تمرين أقيس فيه خوفي وشجاعتي. أعتقد أننا كنا دوماً على هذا الشكل، صحيح؟ الفرق الآن أنك تستطيع ممارسة الدور الذي أملي عليك. ألم تكتب لي مرة: «إننا جيل حرم من التفكير وحمل السلاح»؟ حسناً، لقد حصلنا على الاثنين دفعةً واحدة الآن، ولم نعد نعرف كيف نتصرّف. تحوّلنا لنصبح واجهاتٍ لرغباتنا. وتحقّق ما كنا نحلم به: الحياة انهدمت، ولم نعد نريدها. تخلّصنا من كل هذا الزيف الذي كنا نشكو منه، لنجد أننا طيلة الوقت كنّا نَقتُل ونُقتَل. أن الحياة التي خرِبَت الآن هي الحياة نفسها التي خرّبناها طيلة الوقت. وأنا الآن أنظر من كوّة في ركام مستشفى الأردن على ماضينا.

لا أعرف كم مكثت هناك وأنا أحاول أن أستطلع ما الذي يجري. عرفت على الأقل أن جهتين تتقاتلان من على طرفي الجسر، الذي بقي، لسبب مريب، صامداً. كنتُ مشوّشاً وجائعاً ومنهكاً من المشي. ولم أنتبه إلا وصوت من خلفي يصرخ: «شو بتسوي هون؟»، تبعه صوت آخر حاد أخذ يقترب نحوي بسرعة واخترق ذراعي وخدّر جسدي. كنتُ بحاجة إلى النوم فنمت. وكنت بحاجة إلى الاستلقاء فسقطتُ على الأرض. كنت بحاجة إلى الدفء فشعرت بيدي تتهشّم من الحرارة. وعندما تشوّش نظري شاهدتُ دمي يسيل ويختلط بالتراب والبول.

facebook.com/the.Boooks

15

استيقظتُ على لزوجةٍ ترطّب فمي وأنفي. لم أكن أش
بأنّني أنزف، كانت لزوجة مُفتعلة ومستمرة. تنقطع لثوانٍ لتع
مع لهاث ساخن يكاد، من فرط حرارته، أن يتحوّل إلى بخ
على وجهي. كنت عطشان ومقيّداً وغير قادر على فتح عيناي
لكنني لم أكن أشعر بأي نوع من الألم، كنت فقط عطشا
واعتقدتُ بأن ثمّة من يحاول سقايتي. حاولتُ كثيراً أن أف
عينيَّ، لكنهما كانتا متورّمتين وثقيلتين. كنتُ أرى ظلالاً تتح
من دون أن تمشي. ظلال صغيرة وكبيرة سوداء وباهتة تخت
وتظهر بسرعة. ومع الوقت، استطعت إدراك الفرق بينه
الظلال الكبيرة تدور من حولي وتصدر ضجيجاً بارداً. مج
حيّز مختزل من مشاهد تتذبذب أمامي حتى أنام مرة أخر
بورتريهات خفيفة وبطيئة تتمشّى على حواف أعصابي ال
أحارب من أجل إخمادها. أما الظلال الصغيرة، فهي ال
كانت تحاول سقايتي. كنتُ أستيقظ على لزوجة بطيئة وح
فأحاول أن أشرب، أن أمتصّ اللزوجة وأذوّبها في لعابي. ك
مخدّراً وثقيلاً وغير قادر على الحركة. وشعرتُ أنّني محبو

facebook.com/the.Boooks

في جسدي، أنّني أموت، أو ميّت بالفعل، وأن الوقت تحوّل إلى لحظات لا يمكن أن تقاس. لحظات حُبِسَت في غرف بعيدة تتولّى فيها كل روبوتات العالم حياكة كنزة لا تنتهي من الصوف: بميكانيكيّتها العذبة وغير المرنة، بالوقت الذي يلزم لالتقاط كرة صوف من تحت أقدامها المُشَرشَرة بأسلاك طويلة، بعفويّة سقوط الضوء على الأيدي المعدنيّة الممسكة بعصي الحياكة.

وعندما استطعت إدراك ما يحصل حولي اختفت الظلال، ووجدتُ نفسي في غرفة صغيرة بابها مفتوح، ويصدر من وراء الباب أصوات مخلوقات تتحرّك وتنبح باستمرار. والنافذة الوحيدة كانت فوقي. هناك حيث استلقيت طيلة هذه المدّة على فرشة منقوعة بالدم والبول، مقيّداً من يداي بحبل إلى النافذة. حينها، باغتني وجع كاد يهرس أعصابي. كانت ذراعي اليسرى مصابة. لم أكن أنزف، لكن الدمّ نقع ملابسي ووجهي والفرشة قبل أن يتخثّر.

كنت موجوعاً إلى درجة أنني كدت أن أستفرغ أمعائي. كان الوجع حاراً وثقيلاً. وكنتُ عطشان فناديت. وكنت موجوعاً فصرخت. كان الوقت نهاراً فحاولت أن أنهض لأستطلع مكاني فوقعت. كنتُ جائعاً فبكيت لأول مرة منذ زمن طويل. وشعرتُ بالحاجة إلى أن أكون ضعيفاً. لأن أتهشّم ببطء ومن دون أن أشعر. أن أعود مرّة أخيرة إلى اللويبدة وأستلقي

facebook.com/the.Boooks

على سريري وأموت. لم أكن أريد المقاومة، لكنني لم أ
أريد أن أموت هنا كالبقيّة أيضاً. أن يبتر أحدهم ذراع
السليمة، وهو يشعر بالتقزّز، ليعضّ عليها وهو يعبر من فو
جثّتي. أن يستعملني قنّاص كساتر. أن أموت عطشاً. أن أب
هنا من دون أن أعرف ما الذي يموت أيضاً ورائي في المش
من النافذة. كنتُ غاضباً لأنني معميّ ومقيّد، وغير قادر ع
إلقاء نفسي من السّطح كالآخرين. وعندما هبط الليل كن
مرهقاً من الصراخ والعطش فنمت.

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

16

استيقظت على ظلال كبيرة وصغيرة. كانت الكبيرة تلكم على وجهي وتتحدّث إليّ. والصغيرة تتنفّس في وجهي وتسق لُزوجَتها. وعندما استطعت فتح عيناي، تحرّك الظلّ الكبير الوراء، ورأيته يضع سكّيناً في طرف حزامه وهو يخبر شخ وراء الباب بأنني صحوت. بينما يتابع الكلب لعق فمي وأنفي

صرخت كثيراً به وبالمرأة التي أطلّت من وراء البـ لتراني. سألتهم عمّا يريدان فعله بي ولم يجيباني. ك مصدومَيْن من أنني حيّ، ولم يكونا يعرفان ماذا يريدان يصنعا بي.

ارتبكا أمامي، ودارا حولي وهما صامتان. والكلب يزال يلعقني ويتنفّس بوجهي، وخفت من أن أصرخ كي أغضبه. وعندما غادروا جميعاً، عادت المرأة بكوب ماء وق خبز يابسة، وبدأت بسقايتي وإطعامي بينما كان الكـ يشاركني.

وعندما انتهت، بدأت تخبرني عن قصّتهما وهي تدا

facebook.com/the.Boooks

الكلب: «أترى هذه الكلبة؟ هذا هو عملنا. نحن لا نقتل الناس أو نلتهم الجثث. أعلم أنك رأيت سكيناً في يد سلمان، كان خائفاً فقط من أن تصحو فجأة وتعضّه أو تؤذيه. أشعر بالأسف لأن سلمان اضطر لإطلاق النار عليك، لكن ماذا كنتَ ستفعل لو وُضِعتَ بمكانه؟ لو وجدت شخصاً يحتل كوّة القناصين في المستشفى؟ لكننا لن نؤذيك. لا تقلق، لسنا محسوبَيْن على أيّ طرف. نحن أشخاص عاديين نحاول أن نعيش في وسط هذا كله فقط. فقد كنّا أشخاصاً عاديين قبل ما حصل، وأعتقد بأنّنا حافظنا على هذا الأمر حتى الآن. كنتُ موظّفة بنك عادية أتقاضى راتباً لا بأس به ونحاول أنا وزوجي العيش بأدنى مستوى من الرضا. وعندما انهارت البنوك وجدنا أنفسنا بدون ملجأ بعد أن احتلّت إحدى الجبهات المقاتلة منزلنا لنتشرّد كالبقية. حتى آنذاك لم نكن نأكل الجثث. كنا نبحث عن أيّ بواقٍ في الحاويات ومكبّات الزبالة. في ذلك الوقت كانت قلّة من الناس تأكل وتشرب بشكل عاديّ. كان زوجي يحاول أن يقدّم خدماته في مجال مهنته. كان مسؤولاً عن قسم الصيانة في مصنع مكيّفات كبير. وكان هدفنا البحث عن المنازل التي لا تزال تستعمل التكييف لصيانتها والحصول على الطعام والثياب بالمقابل. كنّا نخرج كل يوم إلى دابوق والحمّر وأم أذينة لنطرق أبواب المنازل عارضين خدماتنا. وكان الحظ يصادفنا أحياناً مرة في الأسبوع. أعتقد أن أصحاب المنازل كانوا محقّين في التوجّس من مناظرنا. خاصة سلمان. رغم أنه وزوجي شقيقان،

facebook.com/the.Boooks

إلا أنهما لا يشبهان بعضهما في شيء. زوجي كان أنيقاً ومهذ
حتى في أصعب الظروف. كان عندما يرتدي البنطال والقميص
المخصصان للعمل يبدو كأنه خرج للتوّ من مكتبه في المصنع
عند انتهاء يومنا كنا نلجأ إلى أيّ زاوية لأحاول إعداد وجبة
الذي حصلنا عليه أو وجدناه طيلة النهار، بينما كان زوج
ينهمك في تنظيف ملابسه. أما سلمان فكان جائعاً طيلة الوقت
فظّاً وسريع الغضب ومن دون أيّ مهارة. ولم يكن ينفع
شيء سوى الأعمال البسيطة التي كان زوجي يكلّفه بها
المساعدة في تفكيك المكيّفات، حمل العدّة، ترتيب المفكّا
حسب القياسات، تعرية سلك وتغليفه. بينما كان زوجي يق
بالعمل كله: مخاطبة أصحاب المنازل وعرض الخدمات
وتجاذب المحادثات التي تُشعِر الأهالي بالاطمئنان أثناء الع
على تنظيف المكيّفات من الغبار والأتربة، ومعالجة تما
كهربائيّ، وتمديد خط جديد للكهرباء، وصيانة الموتورات
مقابل ذلك، كان الأهالي يقدّمون لنا الماء والطعام. وأحي
كنا نحصل على قطع ملابس بحالة جيّدة بالفعل. في إحد
المرّات، نادتني سيّدة منزل كبير وفاره إلى غرفة نومها وفتح
لي خزانة ثيابها وأخبرتني بأن أختار ما يعجبني: «نقّي اللي ب
اياه حبيبتي. إنتي شكلك محترمة وتبهدلتي غصبن عنّك». كد
أن أبكي عندما رأيتُ ملابس داخليّة نظيفة. حمّالات سو
وحمراء بورود صغار على أطرافها. جي سترينغات أرجوا
وبنفسجيّة. قمصان نوم بيضاء وموردّة. كنت فعلاً على وش

facebook.com/the.Boooks

البكاء، فلم أكن أرتدي إلا خرقاً تحوّلت فيما بعد إلى مجرّد شرائط لا لزوم لها. وعندما سقط زوجي من نافذة في الطابق الثاني وهو يحاول تفكيك مكيّف خارجيّ، لم أعُد بحاجة إلى الملابس التي أخذتها من السيّدة اللطيفة. كان كل شيء يبلى ويتحوّل إلى شرائط باهتة. قضيت أياماً عند القبر الذي حفرناه وألقيناه فيه بحديقة الطيور بالشميساني، ولم يكن سلمان موجوداً حتى. كان يخرج طيلة النهار للبحث عن طعام ليعود بسكّين، أو صحف قديمة، أو دمى أطفال محروقة. حتى عاد يوماً بكلب. قال إنه وجده بالقرب من دوّار الرابية جالساً على سور لمنزل مهجور. وعندما حاول الاقتراب منه سمح له الكلب بمداعبته وأخذه معه. وبعد يومين، عاد سلمان من دون الكلب حاملاً كيساً مليئاً بالطعام والماء. وقرّرنا يومها أننا سنقوم بالبحث عن الكلاب المفقودة وإعادتها إلى أصحابها. كان سلمان قد عثر على إعلانات تدعو لمن عثر على الكلب بإرجاعه مقابل مكافأة مجزية. وهكذا عاد بالطعام. وهكذا عثرنا على عشرات الكلاب الضالّة وأعدناها إلى أصحابها. لم يكن عملاً مرهقاً أو صعباً. كانت الكثير من الكلاب تهرب خوفاً من الضجيج الذي يثيره القتال. وكان الكثير من الأهالي يهربون من مناطقهم القريبة من الاقتتال، فتضيع الكلاب في الطريق. ولأنه لم ينتبه أحد إلى هذا العمل، كنا الوحيدين. وأصبحت لدينا سمعة جيّدة، وتداول الذين من كانوا يمتلكون كلاباً اسمَينا وصرنا مشهورَيْن، لكن كانت هناك مشكلة الوصول إلينا. فقد

facebook.com/the.Boooks

كنّا بحاجة إلى مركز لعملنا. وكان يجب أن يكون هذا المرك
قريباً من نقاط التماس حتى نقدر على التقاط الكلاب التي
تهرب من على الجسر الذي كان وسيلة المرور الوحيدة. لذلك
وجدنا في البداية منزلاً في الدوار الخامس، لكن عندما بدأت
تزداد أعداد الكلاب التي لا يبحث عنها أحد بسبب موت
أصحابها أو لامبالاتهم، كنا مضطرين لإطعامهم وسقايتهم لمد
أطول. وكان ذلك يستنزف إمكاناتنا. وشيئاً فشيئاً أصبحت
الكلاب تزاحمنا في الطعام والماء الذي نحصل عليه. لذلك
فكّرنا في حلٍّ يضمن لنا التقاط الكلاب التي يبحث عنه
أصحابها، لكن كيف تعرف ذلك؟ في البداية كنا نبحث عن
كلاب نظيفة وبصحّة جيّدة. فكّرنا أنها فقدت للتوّ، وبأ
أصحابها الأقرب لطلب مساعدتنا، لكن ذلك لم يكن مجزي
أيضاً. فمع الوقت، قلّت أعداد الكلاب المفقودة. وبدأنا نعث
على أشلاء منها في الشوارع. كلاب صغيرة وكبيرة ببطو
مبقورة وأطراف مبتورة كانت تستعمل في الطهي. بعدها
اكتشفنا أننا نزاحم الآخرين في طعامهم، وخطرت لسلمان فكر
أخرى: لماذا لا نقوم بخطف الكلاب من أصحابها؟ وفعلاً
كانت فكرة لامعة. الفكرة الجيّدة الوحيدة التي خرج بها سلما
طيلة معرفتي به. ولم يكن الأمر صعباً: كنّا نرصد المنازل
الكبيرة والفارهة، إضافة إلى المهاجرين من هذه المنازل
ونستغلّ الليل لنتسلّل إلى الحدائق ونخطفها. ولأنّ الكثير من
الكلاب كانت تنبح باتجاهنا عندما ترانا أو تشتمّنا، قرّرنا بأ

facebook.com/the.Boooks

نصطحب كلبة لإغراء الآخرين. فقد كان أصحاب المنازل يميلون لاقتناء الذكور. وهكذا انضمّ عضو ثالث إلى المجموعة. وهذه هي سيمون - مشيرة إليها، الكلبة التي تستطيع إغراء أكبر كلب مزمجر ومثير للخوف. كان العمل يتحسّن مع الوقت. وكانت الفكرة فعلاً مجزية وعمليّة: كنا نخطف في الليل، وفي النهار التالي كنا نستقبل مبعوثين من الأهالي للبحث عنها. وبعد يومين، نقوم بإرجاعها مقابل كميّات أكبر من الطعام والماء والثياب كنّا قد اشترطناها عليهم.

كنا نعيش بشكل جيّد: نأكل ونشرب ونرتدي ملابس ثقيلة تقينا من البرد، لكننا لم نكن نريد أن نقتل الكلاب التي بقيت لدينا أو نرميها في الشارع. لا أكذب عليك، لم يكن الأمر مجرّد شفقة أو تعاطفاً معها. كانت هناك بالطبع لحظات تكلّمنا فيها معها، وحتى لقّبناها بأسماء جديدة، وبدأنا بالتعوّد عليها والتفريق بين شخصياتها ونوعيّة الطعام الذي تفضّله، لكننا كنا نفكّر أيضاً في الاستفادة منها. حتى وصلنا في أحد الأيام مبعوثٌ من أكبر الجهات المتقاتلة للبحث في إمكانية توفير الكلاب لهم لاستعمالها في التقصّي والبحث. وعندما وافقنا، ورّدنا لهم ثلاثة كلاب في البداية، حتى جاؤوا وطلبوا ثلاثة آخرين. وعندما تمّ الاتفاق على توريد ثلاثة كلاب في الأسبوع، بدأنا مرة أخرى بالتقاط الكلاب الضالة في الشوارع.

في الواقع، كنا أحياناً نخطف كلاباً لنورّدها إلى المقاتلين بعد أن كان المقابل مجزياً بشكل أكبر من أصحاب الكلاب. إذ كنا

facebook.com/the.Boooks

نحصل منهم على كفايتنا من الطعام والماء والثياب. إضافة
توفير الحماية. حتى بدؤوا بمقايضتنا بالسلاح. في البدا
كانت المقايضة محصورةً في سكاكين وقنابل ومسدّسات عيا
ملم، لكننا في النهاية حصلنا على صفقات كبيرة: رشاش
ومضادات دبّابات ومتفجّرات TNT وألغام. ولأننا لم ن
نعرف ماذا نصنع بهذه الأسلحة، قرّرنا المتاجرة بها. هنا ع
بأنّنا بتنا داخل لعبة خطيرة. تورّطنا باختيارنا ومن دون س
جيّد. كنّا قد بدأنا بالتحوّل إلى إقطاعيَّيْن نحاول اكتساب الـ
من الامتيازات. لا أعرف بماذا يفكّر سلمان بالتحديد،
الأغلب هو يريد أن ينجو فقط، لكنّ جزءاً من تورّطي هو ر
في الانتقام من كل هؤلاء. من أصحاب المنازل الفار
والجبهات المتقاتلة، والكلاب، والمتشرّدين، وجميع المقبو
في حديقة الطيور، وجميع المحتَجَزين في منازلهم. أنا أ
لزوجي ولنفسي. أنتقم من المدينة وأشارك في تهديمها. أ
أنّني أجرّ نفسي إلى نهاية بشعة، لكنّني أريد أن أنشر مس
أكبر من الضجيج. أن أرى جثّةً متفحّمة بدون رأس وأ
لنفسي بأنني السبب. أن أرى كلباً يلتهم كلباً آخر وأش
بالاطمئنان. لا أتوقّع أن تفهَم، ولا أقول لك ذلك
تتفهّمني. إنك ميّت في الأغلب هنا أو في مكان آخر ليس بع
ذراعك تتورّم ولا نستطيع المغامرة بالاستعانة بأحد لمداوات
إضافة إلى أننا لا نثق بك، لكنّنا لن نؤذيك، وسنوفّر لك الـ
والشراب بالقدر الكافي. لن نغدق عليك لأننا في مر-

facebook.com/the.Boooks

حرجة، ونحتاج إلى كلّ كسرة خبز وقطرة ماء. إذ سينكشف أمرنا عاجلاً أو لاحقاً. فبعد أن بدأنا بالمتاجرة بالأسلحة مع الجبهات المقاتلة الأخرى، بدأت الجبهة المزوّدة بالشكّ فينا. فقد لاحظوا التطوّر المضطرد في الدمار الذي أحدثته الجبهات الأخرى بمعسكراتهم. ولمّا كانوا يشترطون علينا أن نبيع الأسلحة للأفراد فقط، فقد كنّا نلعب لعبة قذرة. كانت الأطراف الأخرى تعلم مصادر الأسلحة. كان ذلك بديهيّاً. وكانت الجبهة الموردة ترسل إلينا كوادر برتب أعلى مع الوقت لاستطلاع نوايانا. لم يكن أخلاقيّاً بالنسبة إلى اتّفاقنا التساؤل عن الطرق التي يتصرّف فيها الطرفان بالكلاب والأسلحة. كنّا نعرف أنهم يدرّبون الكلاب على تقصّي الأثر وحراسة المعسكرات، وكانوا يعرفون أنّنا نتاجر بالأسلحة، لكننا لم نكن نتساءل عن ضحايا هذه العمليّات. لا أعلم، ربّما شاركت الكلاب في عمليّات الملاحقة والقتل. ربّما اعتاشت على الجثث الملقاة في الشوراع. هذا لا يعنيني شخصيّاً. مثلما لا يعنيهم طبيعة الأفراد التي اشترت منا الأسلحة. ولأنهم لم يستطيعوا تأميننا بالطعام والماء والثياب طيلة الوقت، كانت الأسلحة هي ثمن المقايضة الوحيد في أغلب الأحيان. كنا نقايض الأسلحة بالطعام، بالمياه، بالمساومة على اقتطاع أراضٍ لضمّها إلى مركزنا، بأسلحة أخرى، بتأمين الحماية، لكننا لا نقتل. لا نغمس أيدينا بالدماء. نحن نوكّل آخرين بذلك فقط».

facebook.com/the.Boooks

17

غادرت المرأة التي لم أعرف اسمها مع سيمون. وعا
إليّ في أوقات متقطّعة لتطعمني وتسقيني. أحياناً كانت توقد
في الفجر وتعتذر مني وتقول بأنها ذاهبة مع سلمان في مهمّة
الطرف الآخر من الجسر ولن يعودا حتى المساء.

في أوقات غيابهما، كنتُ أسمع الكلاب المحتجزة
الغرفة الأخرى وهي تتحرّك وتنبح طيلة الوقت في الفراغ ال
يحيط بنا جميعاً. قالت لي المرأة إنّ المركز في الد
الخامس، لكنها قالت أيضاً إن المركز توسّع ليضمّ أراضٍ أخ
لا بدّ من أنني في إحداها.

كنت أحلم أحياناً بأنّني نائم في سريري بمنزلي باللويب
الشمس تقترب من قدميّ شيئاً فشيئاً حتى تغمرني بحرارتها
تحت الغطاء. وعندما أكون قادراً على رؤية الشمس وهي تـ
في المرآة المقابلة للسرير، تبدأ أصوات نباح ومواء من الصا
بالاقتراب من الغرفة. في البداية، تبدو الأصوات كأ
تستجدي طعاماً أو ماءً، أو حتى صحبةً، لكن مع اقترابها

facebook.com/the.Boooks

الأصوات تزمجر بغضب، حتى تتكّوم في صوت واحدٍ كبير وأسود يهجم عليّ من الباب. عندها أستيقظ وأنا منقوع بالعرق فأتذّكر أين أنا الآن وأسمع أصوات الكلاب في الغرفة الأخرى تزمجر بغضب.

كانت ذراعي تزداد سوءاً. خفّ الألم الآن. ومع اختفاء الألم كان إحساسي بها يختفي تدريجيّاً. كنت أراها وهي تتورّم حتّى بعد أن حرّرتها المرأة من القيد. كانت منقطعة عن الدمّ والسوائل، وكانت قد بدأت بالتحوّل إلى اللون الأسود، لكنني كنت الآن أيضاً قادراً على النهوض والنظر من النافذة.

أطلّت النافذة على حديقة لمنزل كبير ومهجور سدّت جدرانه العالية المشهد من ورائه. لذا، كانت محاولة معرفة مكاني عبثيّة. ولأنّني لم أكن أسمع أيّ أصوات، فقد علمت على الأقل أنّني محتجز في مكان بعيد عن نقاط التماس. لذا، رجّحت بأنني لست في الدوار الخامس على أقل تقدير.

في بعض الأحيان، كنتُ أسمع خطوات تمشي باتجاه النافذة التي كانت تعلو طابقين. خطوات بطيئة وخافتة توحي بأن صاحبها يتسلّل حول المكان. ولأنني كنتُ أجهل ترتيبات حماية المكان، فقد جلستُ أيّاماً وأنا أنتظر أن يأتي أحد ليقتلني. وعندما كان سلمان والمرأة يرجعان، كنت أخبرهما عن تلك التحرّكات، فيجيباني بأنها في الأغلب لأفراد رصد واستطلاع من القوّات المختلفة. إذ فقدا الثقة بهما، وقالا لي

facebook.com/the.Boooks

بأنهما يتوقّعان اقتحام أماكن نفوذهما وربما تصفيتهما قريب
لذلك، كان عليهما التنقّل بين المراكز التي امتلكوها طي
الوقت، متناوبان على النوم والمراقبة.

كانا يأتيان إلى المكان الذي احتجزاني فيه كل يومين م
واحدة. ويقضيان فترة تتراوح بين أربع وخمس ساعات أو أ
قليلاً. كنتُ ألاحظ أنهما يأتيان في وقت متأخر من الليل
ويغادران عند الفجر. أو في منتصف النهار، ويغادران عند
تزداد برودة الجو. لذلك، خمّنت بأن مناطق نفوذهما إما متّس
أو تحتوي على مراكز كثيرة. فإذا كانا يمكثان في المركز الوا
لمدة أربع ساعات، ويحتاجان إلى ساعة للتنقّل بينها، فه
يعني أن نفوذهما يتّسع لخمسة أو ستّة مراكز أخرى على الأقل

كنتُ أتوسّل إليهما أن يطلقاني. كنتُ واثقاً من أنّني فقد
ذراعي. وكنتُ أريد أن أغادر لأموت في مكان آخر. أحيان
كانت سيمون تأتي لتلعق ذراعي، وكنتُ أبكي لأنني لا أستط
الإحساس بها. كانت لا تزال تأتي لتلعق وجهي وتتنفّس
أنفي. وشعرتُ للمرة الأولى أن ذقني طالت من مداعبة سيم
لها. ومع الوقت، بدأت أفقد وعيي لأستيقظ مرة أخرى ع
الظلال الكبيرة والصغيرة. كنتُ أشعر بأنّني مخدّر. وكفّ
المرأة عن إطعامي. وبقيت أشرب من لعاب سيمون. ح
استيقظت مرة على ظلال كثيرة وصراخ وضجيج.

عندما انتهى الضجيج شعرت بذراعي السليمة تنفكّ

facebook.com/the.Boooks

الحبل، وظلٌّ كبير يتنفّس في وجهي ويلكمني على رأسي.

شعرتُ بأنّني أُحمَل بخفّة وأتنفّس هواءً جديداً. وعندما أعمى الضوء الخارجيّ الخيالات، انحسر العالم من حولي كما لو كنتُ أزيح عن جسدي أكوام قطن ناعم.

facebook.com/the.Boooks

18

استيقظت على قرع الباب، واشتممتُ رائحةً نظ
وشعرتُ بأنّني مستلقٍ على فراش نظيف. سمعتُ الباب يُ
ومطّاطاً يُشَد، لكنني لم أكن قادراً على النهوض أو استك
المكان الذي أنا فيه. بقيتُ أيّاماً على هذه الحال وأنا أ
بأشخاص يأتون من حولي ويمسكون ذراعي التي لا أ
بها،ويتكلّمون بأصوات خفيضة. ولا أكاد أن أميّز ملامح
منهم حتى يختفي في بياض حاد أنعَمي وراءه وأنكشفُ لدوّا
أعصاب تأخذ الشّكل الذي تشتهيه، فأحاول تقليد الأشكال
ألحق بها. لا أستطيع أن أشرح لك ذلك بدقّة. كنتُ أ
بالتأكيد. الأمر يشبه التحديق في بقع حبر تتشكّل على
ماء. عندما كنتُ صغيراً، ناداني أبي وقال لي: «نروح أنا
مشوار؟». لم أفهم ماذا كان يريد مني، ولماذا قرّر فجأ
يختلط بي. مرّت علينا لحظات كهذه في فترات متباعدة أس
أن أتذكّرها بتفاصيلها وأعدّها. كان أبي ضخماً ويعرف
يغازل أمي أمام الناس، لكنه كان مهترئاً من فرط البقع ا
خلقها داخله بعيداً عني. كانت عاطفته مهترئة وساذجة في

facebook.com/the.Boooks

هذه اللحظات: دفقات مراهقة تشعرني بأنّنا أصدقاء مقربين. في إحدى المرات التي أخذني فيها إلى وسط البلد، تسمّرت أمام بوستر لأحد الموسيقيين من حفلته بمهرجان جرش معلّق فوق بسطة ساعات رقميّة. أذكر إلى الآن كيف وضع رأسه مقابل رأسي كأيّ عاشقة وسألني مبتسماً بشاربيه الكثّين: «بدّك ساعة؟». عندما استقلينا السيارة، دخلنا إلى مناطق أزورها لأول مرّة: بيوت مصفوفة فوق بيوت، شوارع ضيّقة وأطفال يلعبون نصف عراة بالوحل، لكنني كنتُ أشعر بالامتياز على الرغم من اكتشافي أن المشوار لم يكن مخصّصاً لي. نزلنا إلى منزلٍ بباب من حديد صدئ، وأدخلنا رجل قصير يرتدي دشداشة إلى غرفة دافئة. وبعد أن تحدّثنا مطوّلاً، أشار لي الرجل بالاقتراب إلى طاولة وضع عليها صحن ماء، وأخذ يقطّر فيه حبراً من قطّارة صغيرة ويسألني: «هل ترى شيئاً غريباً؟». وعندما لم أتجاوب قرّر أن يكشف الأمر لي: «انظر إلى الحبر كيف يتشكّل في الماء! أنت تعرف أنه ثمّة مخلوقات غيرنا صحيح؟ لا أعني الحيوانات، مخلوقات أخرى ذكرت في القرآن. يوجد من هذه المخلوقات أجناس لطيفة وتحبّ مساعدة البشر لأنها تمتلك أسراراً لا نستطيع نحن إداركها. لذلك، صادقتهم، واتفقت معهم على مساعدة المحتاجين، لكنهم لا يتمثّلون لي إلا بالحبر، فدقّق النظر، إنهم ينتظرونك كي يخبروك سرّاً عن أبيك. إنه يريد معرفة إن كان ثمّة عمل مجزٍ في المستقبل». وأنا أردتُ المساعدة فعلاً، وحدّقت بالأشكال التي

facebook.com/the.Boooks

لم تساعدني في العثور عليها. لوهلة اعتقدتُ أن قطرة انفص
عن أخرى تثبّت في منتصف الوعاء، وتتشكّل على هيئة وجه
واحدة تشير إلى فمٍ مفتوح. قلت لهما ذلك، فأخبرني الر
بأنهم تعرّفوا عليّ وأنهم يريدون إخباري شيئاً، وطلب مني
أقرّب أذني كي أستمع. طبعاً لم أسمع شيئاً في النها
وأخذني أبي إلى المنزل من دون أن يتكلّم معي طوال الطري
لا شك في أن أبي مات الآن، والتهمه أحد. لا شكّ بأنّه
يعلم ماذا حلّ بي وأنا مستلقٍ في هذا السرير وأسمع طرقاً ع
الباب، وخطوات تتقدّم مني وتمسك ذراعي التي لا أشعر بـ
ولأوّل مرة افتقدتُ عاشقةً كأبي.

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

19

عندما استعدتُ وعيي، أعطوني غطاءً وملابس وحـ
ونقلوني إلى غرفة أصغر وأقلّ نظافة، وقالوا لي: «لديك ثا
أيام لتستعيد قوّتك». وعندما دخل علي إبراهيم الصعيـ
بملابسه العسكريّة لأوّل مرة، اكتشفت بأنني مسجون على
تقدير.

أثناء الاستجواب فهمتُ أنني محتجز لاستطلاع توجّهات
وللتأكّد من أنني لستُ مع الجهة المقابلة. فهمتُ لاحقاً
سرت إشاعة في المعسكر بالقبض على أحد مقاتلي كتيبة كا
الشبعان. خاب ظن الصعيدي لأنه اعتقد أنّني سأمدّه بمعلوم
حول الكتيبة وحول الجسر. لم يحاول إيذائي أو تعنيفي.
صارماً وضيّق الصدر، لكنه في الوقت نفسه كان يحافظ ع
أدنى مستوى من التواصل الإنسانيّ. لذلك، شعرتُ من البد
أنّه كان جنديّاً كالآخرين. جنديّاً انشقّ أو ترك معركة خاسـ
يعتقد فيها الجنود أنهم يحمون المدينة، والتحق بالقتال. و
ظنّي صحيحاً.

facebook.com/the.Boooks

شرح لي الصعيدي الوضع. الأمر بدأ حين عرض ورثة كامل الشبعان تقديم منحة تأهيل إضاءة جسر عبدون المعلّق كما كان يسمّى. إثر ذلك، قرر مجلس أمانة عمّان تغيير الاسم إلى «جسر كامل الشبعان المعلّق»، اعترافاً بدور مكتب الشبعان الهندسي في تنفيذه، وامتناناً لورثته. وعند اشتداد القتال، حاولت كتائب حركة عمّال العبدلي احتلال الجسر لقطع طريق الإمدادات القادمة من دابوق إلى العبدلي. وكان الأمر لينجح في البداية من دون قتال، لولا أن حرّك الورثة كتائب لقطع الطريق عليهم مدجّجين بالدبابات والمدفعيّة. وهناك وقعت معركة الجسر التي كانت أيضاً ترمز للمعركة الأكبر التي كانت تجري. قال لي الصعيدي إن الطرفين خسرا أكثر من نصف مقاتليهم في المعركة. ولمّا كان الجسر مهمّاً في استراتيجيّة كلا الطرفين، لم يتعمّدا إصابته في أي من المراحل. وهكذا، كفّ الطرفان عن محاولة احتلال الجسر رغم رمزيته. فالورثة كانوا يريدون المحافظة على اسم والدهم حيّاً حتى تحت هذه الظروف، بينما أرادت كتائب حركة عمّال العبدلي، بعد تصويت مجلس الأمناء، السيطرة على رمز الصراع الذي تشكّلت نواة الكتيبة من أجله سنة 2005.

أتذكُر كاريكاتور «جسر النقّيفة» لعماد حجّاج في تلك السنة أثناء إنشاء الجسر؟ حسناً. تبيّن أن الكاريكاتور اعتبر بمثابة مانيفستو الصراع منذ البداية. أذكر أن الناس قبل اندلاع القتال

facebook.com/the.Boooks

إلى وقت قريب كانوا يسمّونه كذلك، لعلّك تذكر ذلك أيض
نعم، كنّا ننظر إليه كرمز لصراعٍ كثّفه حجّاج في الكاريكاتو
لكنني لم أتخيّل يوماً أن أحداً سيعتبره إلهاماً.

لاحقاً، قام الصعيدي بشرح أهميّة الكاريكاتور بشـ
أوضح: «ظهر الكاريكاتور في السابع من تمّوز/ يوليو ـ
2005، بينما كان الجسر في مراحله الأخيرة من الإنشاء بكـ
وصلت إلى 15 مليون دينار. ظهر ببساطة وفجاجة كأيّ لو
واقعيّة في الاتحاد السوفييتي بالقرن التاسع عشر. رسم حجّ
طرف الجسر ربط بأعلاه حبلاً يشدّ نقيفة ركب بداخلها أفراد
عمّان الشرقيّة وهم يتوعّدون ويزغردون بطريقهم للقفز إ
عبدون. الكاريكاتور، رغم شعبويّته المفرطة، إلا أنه عبقريّ
تسميَة الأمور بمسمياتها. انظر إلى الأرض التي يقف علـ
أهالي عمّان الشرقيّة مثلاً؛ أرض مصفرّة وغير منتج
ومحصودة أصلاً لم يتبقَّ عليها إلا بعض الأعشاب الجافّة. بيـ
عبدون تظهر باللون الأخضر، حتى إن بعض النباتات الخضـ
تفيض عن سور أحد المنازل. حتى منازلهم مترفة وبتصاه
غربيّة لم ينجُ منها المسجد الوحيد في الكاريكاتور. أما عمّ
الشرقيّة فتتكوّم منازلها على يمين النقّيفة بلون باهت لا يطـ
إلى أن يكون حتى أصفر. مجرّد مساحات مشغولة كيفما اتّفـ
هناك أمر آخر، فبينما يظهر أهالي الشرقيّة بفظاظة أيضاً، إ
درجة أن أحدهم يحمل موسى، وآخر يضع شريطاً أخضر ع

facebook.com/the.Boooks

رأسه، وثالث موشوم على ذراعه، يختفي أهالي عبدون وراء أسوار منازلهم العالية، مطلقين صرخات ذعرهم بالإنجليزيّة: "OH MY GOD"، و"OH NO". عرفت آنذاك أن ثمّة رمزيّة لهذا الصراع، وبدأت أبحث عن خلفيّات الجسر».

يخبرني الصعيدي أنه عندما مات الشبعان سنة 2008، نشرت جريدة الغد مرثيّة تستذكر إنجازاته. وفي أحد التعليقات، ظهر تعليق لشخص سمّى نفسه إسماعيل وكتب: «اللهم ارحم جميع موتانا. لا شماتة في الموت أبداً، لكن اعلم أن رب العالمين أعدل من المقال المادح والمنزّه للمرحوم، وهو من سيسأل الفقيد عن رواتب المهندسين المتدنيّة في شركته إن كان أنصفهم، أم بنى إمبراطوريّته بالتوفير فيها مره أخرى - رحمه الله».

لا يمكن الوثوق بهذا التعليق بالتأكيد - يقول الصعيدي، لكنه دفعه للبحث في سيرة الشبعان. ليكتشف أن والده كان اضطر لترك مدرسته في السلط بعمر صغير من الفقر للعمل في عمّان، ليتعلّم التجارة من أحد التجّار ويعود إلى السلط بعد عشر سنوات ويفتتح متجر أقمشة حتى اغتنى.

حصل الصعيدي على المعلومات حيث كان يعمل كسائق باص «كيا» لتوصيل العمّال الهنود الإضافيين الذين استقدمتهم الشركة المنفِّذة لتسريع تنفيذ العمل. الشركة اتفقت مع الصعيدي على مبلغ 35 ديناراً كأجرة أسبوعيّة مقابل إيصال العمّال، الذين

facebook.com/the.Boooks

لم تتّسع الكرافانات المخصصة لهم قرب المشروع، ه
مساكنهم في رأس العين إلى مكان عملهم وبالعكس. قال
الصعيدي إنه كان أصلاً يستأجر الباص بدينارين يوميّاً، أض
إليهم استهلاك الديزل ليقترب المجموع من 4 دنانير يوميّ
وكان يربح من هذا العمل 7 دنانير. ليس بالكثير، يقول «لأن
كنت أقوم بالعمل بين فترتي الصباح والمساء بتوصيل آخر
تعاقدت معهم أسبوعيّاً أيضاً. وفي آخر الليل، كنت أذهب إل
سوق الخضار خلف الجامع الحسيني وأشتري بواقي الخض
والفواكه لأبيعها إلى مربّي المواشي في خريبة السوق».

توطّدت علاقتي بإبراهيم رغم أنه كان بمثابة سجّاني
ورغم أن الثلاثة أيّام انقضت، والأسابيع انقضت، إلا أنه سم
لي بالبقاء في هذه الغرفة، مستفيداً من وجبة خضار مسلو
تأتيني يوميّاً في العصر، و4 أكواب ماء. كان إبراهيم يأتي إل
الغرفة كل يوم تقريباً لنتحدّث. كان في الواقع هو يتحدّث معظ
الوقت عن أحداث كهذه. كان صاحب أيديولوجيا لا تطاق
دوغمائيّة أحياناً. كان يكره الأغنياء والعذابات المترفة، وطرية
كلامهم ولبسهم وفنّهم وأغانيهم وامتيازاتهم. وكثيراً ما كا
يطلق عليّ أحكاماً تحزنني. في إحدى المرات دخلنا بنقاش
طويل حول اعتصام سائقي الأجرة بوادي صقرة في أيلول
سبتمبر سنة 2012. يومها كان مستعدّاً لتتفيه أي سذاجة تصد
مني وبشراسة. فبينما كنت أقول إنني أتعاطف معهم وبأنني كنا

facebook.com/the.Boooks

أترك لهم كسور الدينار كبقشيش، نظر إلي وقال: «كس أخت العالم اللي كنت عايش فيه. بتحكي عن حالك كادح؟ هاي الكلمة ما بتعنيلي شي. شو دين الكدح اللي كنت تكدحه؟ كنت تكتب عن الكادحين؟ يا أخي أحّا. عشان هيك إيديك زي إيدين واحد عمره عشر سنين؟ قال كادح قال. أصلاً انتوا اللي وديتونا لهالهاوية. انتوا جماعة المساواة والعدالة الاجتماعيّة والفن البديل والحملات السياسيّة. يا أخي خلقتوا إعلام بديل، وموسيقى بديلة، ومساحات فنيّة بديلة. يا زلمة حتى جبتولنا متنبئ طقس بديل. انت بتعرف ليش ما كنّا ننزل عالمظاهرات بسنة 2011؟ عشانكم. نعم عشانكم. انتوا أخطر من المتكسّبين والأثرياء. بتعرف شو انتوا؟ انتوا سبب الظلم بالاستمرار. انتوا الظالمين المقنّعين. مجرّد حاجز هلامي وسخيف يضمن استقرار مزيّف، ويمنح الشرعيّة للأثرياء بالوجود. تطوّر مشوّه لفكرة التواطؤ مع البرجوازيّة الحاكمة».

لم يكن إبراهيم يستجدي شفقة من أحد أو مني. ولم يبدِ في أي من اللحظات تذمّراً من فقره وظروفه، لكن في لحظات كهذه، كان ينتفض ويلوّح بيديه ويشير بإصبعه متوعّداً. كان القتال في الخارج يحتدّ مثلما كنتُ أسمعه على الرغم من تكتّم إبراهيم على سير المعارك، لكنّ الصراع تجسّد أمامي في هذه الغرفة بكل وضوح. وبعد أن صفق الباب وراءه بعنف، أدركتُ بأنّ الأمر سيطول، وأن ثمّة ما يغذّيه. ثمّة من يعبّئ المقاتلين

facebook.com/the.Boooks

ضد بعضهم. في المعسكر الآخر، وفي غرفة أخرى كه يتوعّد حانقٌ آخر بحرق المدينة وإبادة سكّانها عن آخرهم.

لكنّني كنتُ محسوباً على هذا الجانب سلفاً. لم أ كادحاً بالمعنى الذي يعنيه إبراهيم، لكنّني على الأقل أريد أنجو. لا أريد أن أهيم في الشوارع مرّة أخرى. فلتحترق عـ عن آخرها، لكنني أريد أن أشارك في إحراقها للأسب الصحيحة.

facebook.com/the.Boooks

facebook.com/the.Boooks

20

يومان ولم يأتِ إبراهيم. انقطع الطعام والماء، ولم يقتر
أحد من الغرفة طيلة هذا الوقت، ولم أعد أسمع أصوا
القذائف في الخارج. فكّرتُ كثيراً بآخر نقاش بيني وب
إبراهيم، معتقداً أنّه يعاقبني، وأنّه سيتركني لأموت هنا.

كنت بعافيتي كما لم أكن منذ زمن طويل. ذراعي تحسّن
والجرح التأم، ولم أعُد أشعر بالألم إلا أثناء الليل من الب
الشديد رغم أننا كنا في نيسان. لذلك، كنتُ أستطيع أن أتحمّ
غياب الطعام. لكنّني كنتُ عطشاً، ونسيتُ أن أبلّل طرف غط
السرير لأمتصه إذا استيقظتُ عطشاً في الليل كالعادة.

بدا لي الشرب من بولي أفضل من أكل البراز. خاصة أ
الدفعة الأخيرة التي أفرغتها من معدتي تجمّعَت على سطح مي
المرحاض كسوائل لزجة. وفكّرت أن أكتب لك.

تعلم؟ كانت أوقاتاً عظيمة. كنتُ أتعذّب من الأصوا
التي أسمعها في الخارج، والأصوات التي لا أستطيع سماعها
كنت محتجزاً في مكان ما بعمّان - كما كان الحال دائماً

facebook.com/the.Boooks

ممنوعاً من مغادرة الغرفة، وممنوعاً من إدراك ما يحصل خارجها، لكنني أعتقد أنّ كل هذا كان خياري. أتفهمني؟ يعني ما الذي يمكن لأي شخص أن يفعله للتمرّد على الاحتجاز في غرفة صغيرة؟ كنتُ فعلاً ممتنّاً لأن كل ما يحصل ليس له علاقة بي. كنت منكفئاً وراضياً بكل ما أتلقاه. ولم تكن لي يد في ذلك. جلستُ في الغرفة وسمّيتها منزلي، وسمّيت العالم الذي ينهار في الخارج عمّان. وسمّيت نفسي أحمد الزعتري. كنتُ فعلاً ممتنّاً لأنني لن أتدخّل بعد الآن في مسار حياتي، وكنتُ أخشى أن ينتهي الاقتتال لهذا السبب. أخطر ما يمكن أن تتمنّاه هنا هو المشاركة في تغيير التاريخ. أنتَ تعلم أنّ كل هذا سينتهي يوماً ما. وستستلقي يوماً ما على سريرك وتتذكّر جبل النصر والرابية والقويسمة كأنها جبال شيّدت على عجل في الليل، ووجدناها في الصباح تنعم بالشّمس نفسها التي تطلع علينا حتى تنساها. ويعود استذكارها مرة أخرى عمليّة مرهقة، حتى تكتشف بأنّك تحمي نفسك من حلٍّ يسترجع حق هذه الأماكن بالوجود. لذلك، تترك الأمر لزيارات رسميّة لإعادة إيجاد المدينة مرة أخرى: جسر هنا، وشجرة هناك. وشيئاً فشيئاً تجد بأنّك غير قابل للعيش هنا إلا بإعادة اكتشافك. وكنت راضياً بهذه الحقيقة. وقرّرت أن ألعب هذه اللعبة مع الآخرين. وسأقول ذلك لإبراهيم عندما يرجع مرة أخرى، لكنّه تأخر خمسة أيام. وفي اليوم السادس انفتح الباب.

facebook.com/the.Boooks

كان الوقت متأخّراً عندما فتح إبراهيم الباب ودخل ليجلـ
على الأرض من دون أن ينظر إليّ. كان يبدو مرهقاً ويدخـ
باستمرار. كان إبراهيم من النوع الذي يوحي لك بأنّه يفـ
ويعطي الأوامر ويتحدّث بالوقت نفسه. عندما يتحدّث يبدو كـ
يسحب أوراقاً في مكان ما من ذهنه ويعيد قراءتها. إذا
صدفته يوماً ما وهو يستقلّ باص الكيا لن تعيره اهتماماً. مجـ
شاب في أواخر العشرينيّات، حنطيّ وهزيل يرتدي ملابـ
بألوان باهتة وحياديّة، لكن عندما يبدأ بالكلام ستشعر بأنـ
طرف ثالث في المحادثة. كان مكتفٍ بذاته، ولن ينتظر أحـ
ليخبره أنّه وحيد مثلنا كلّنا.

قال لي إبراهيم إنه من الخطر البقاء هنا الآن، وأنهم جمـ
سينتقلون الليلة إلى مكان أكثر أمناً. «لم نتركك هنا لتموت
قال بما يشبه الاعتذار، وأخذ يشرح لي ماذا حصل.

تبيّن أن المعسكر قائم حول أنقاض سبيل الحوريّات. و
المكان الأقرب للخصوم الذين يتمركزون على جبل القلعـ
متمتعين بامتياز إطلالها على وسط البلد وجبال النصر والتا
والجوفة والأشرفيّة. قال لي بأنّ الأمر بدأ عندما قرّر روّاد ليا
جبل القلعة الرمضانيّة البقاء هناك لحراسته والحفاظ علـ
استمراريّة الليالي عندما هدّد السكان المحيطون باقتحـ
السهرات احتجاجاً على ضجيج الموسيقى والناس. وعند
اندلع القتال، قام الحرّاس بتهجير الأهالي إلى وسط البلد

facebook.com/the.Boooks

وبذلك تشكّلت أول جبهة مضادّة لتستقرّ هنا. ولأن القذائف لا تصل إلى هذه المسافة - أي 350 متراً تقريباً، قرّر الأهالي تنظيم أنفسهم في سبيل الحوريّات، وإنشاء أول معسكر لهم. وكان إبراهيم، بالطبع، من بينهم يقود عمليّات التسلّل والاستطلاع. تبيّن أن إبراهيم بمثابة قائد للعمليات العسكريّة. وأنّه، كما أخبرني لاحقاً، قرّر الاستفادة من النفق الأثري الذي يربط السبيل بالقلعة، لكن الأمر احتاج إلى الكثير من الجهد في إعادة اكتشاف النفق وحتى حفره في بعض المناطق. خسر إبراهيم عدداً من أفراد فرقته تحت أنقاض النفق عند حفره، لكن بشكل عام لم يكن الأمر بتلك الصعوبة نظراً إلى أن زاوية النفق لم تكن حادة كما كانوا يتخيّلون. وإذا كان حرّاس القلعة يتمتّعون بامتياز كشف معظم وسط البلد، فقد كان مقاتلو سبيل الحوريّات يتسلّلون من النفق ويقومون بعمليات تفجير وقتل لإضعاف قدرة الخصوم ومباغتتهم. إلى أن اكتشفوا مخرج النفق من جهتهم، وقرّروا إرسال أحدهم للاستطلاع داخل النفق. حينها، تصادف مرور أربعة من أهالي السبيل في طريقهم لإنجاز عمليّة تفجير كبيرة. وبالطبع، كان قتل المستطلع سهلاً، ليعودوا بعدها إلى المركز وينشروا الخبر: لقد انكشفنا. وفي حركة استباقيّة، جمع إبراهيم رجاله ليتسلّلوا إلى مشارف القلعة من رأس العين لمحاصرتها. تاركاً عدداً آخر على مدخل النفق في السبيل. واندلعت هناك معركة قتل فيها المئات. لذلك، لم أكن أسمع أصوات الانفجارات خلال تلك الأيّام. كان الأمر مرهقاً

facebook.com/the.Boooks

كما أخبرني إبراهيم، إذ لم يستطِع أي من الطرفين إبادة الآخ
وعاد مع من تبقّى من رجاله الليلة وقرروا الانسحاب إل
المدرّج الروماني عبر وصلة أخرى للنفق اكتشفوها صدفةً
الأمس وقرروا أن يمهّدوها. وعندما انتهى من الحديث، نهض
عن الأرض وأمرني بأن أتبعه. ولأوّل مرة خلال شهر، خرج
من الغرفة لأمشي في دهليز طويل توزّعت على جانبيه عشرا
الغرف كغرفتي. ولأوّل مرة منذ شهر اختلطت بالناس الذ
كانوا يخرجون من الغرف ويمشون بصمتٍ باتجاه الشرق
أشخاص متعبين ومتجهّمين بملابس رثّة وقذرة. أطفال يبك
بصمت. عجزة يتمتمون بأدعية وآيات قرآنيّة. نساء جميلا
لوثّهن الوحل والغبار. شباب يحملون شباباً على أكتافه
رجال يجرّون صناديق ثقيلة مفتوحة وضعت فيها خضار وميا
مسلّحين متعبين. وكنتُ واحداً منهم. وفكّرتُ بأنّني قريبٌ فع
من هؤلاء الناس. وبأنّني أريد أن أدافع عن مكاني بينهم. الأ
يشبه المشاركة في مظاهرات 2011. أتذكر عندما اصطحبت
إلى إحداها؟ كنّا ندافع عن بقعتنا الخاصة ليس أكثر. نضع
لأرجلنا مكاناً في الشارع. لم يكن الأمر متعلّقاً بمدى انتما
أو تعلّقنا بالمدينة. كنّا فقط ندافع عن مكان أفضل للعيش
يومها كنتَ ترتجف. أعترف بأنني كنت أرتجف أيضاً عند
سرت شائعات بأننا محاصرون من القوّات الخاصة والبلطجيّ
طيلة الوقت، كان الناشطون يظهرون كلّ قليل لينقلوا إلينا تط
الوضع. وعندما اتّصلت بي ربى بعد مغادرتها، أخذت تتوسّ

facebook.com/the.Boooks

إليّ وهي تبكي بالمغادرة لأنها رأت بلطجيّة يحملون عصى وسكاكين في طريقهم إلينا. وقتها اشتعل الأدرينالين، وهتفنا بأعلى صوتنا. كنتَ مذهولاً من هذا الشعور، سعيداً ومرتعباً من التجربة، لكننا كنّا فقط ندافع عن وجودنا في الشارع في تلك اللحظة بالذات.

facebook.com/the.Boooks

21

وصلنا إلى المدرّج عند الفجر. وفوراً تم توزيعنا على متحفَي «الحياة الشعبيّة» و«الأزياء الشعبيّة» على طرفي الساحة الرئيسة. بينما اتّخذ المقاتلون أماكنهم على أطراف المدرّج ومداخله، متناوبين على النوم في الساحة الرئيسة. بينما أمر إبراهيم فرقة من سبعة أشخاص بالتموضع حول الساحة الهاشميّة كخط استطلاع ودفاع أوّلي. وبعث باثنين إلى مجمّع رغدان للسبب نفسه. رغم أن احتمالات الهجوم من المجمّع شبه معدومة.

لم يكن هناك الكثير لعمله في المعسكر الجديد. قسّمونا إلى عائلات وأفراد. حصلت العائلات على أوسع البقع وأبعدها عن الباب الرئيس في المتحف الأكبر، وأعطوها أغطية لتعلّقها كساتر أمام المداخل المفتوحة. بينما وضعونا نحن الأفراد كيفما اتفق على المتحف الآخر: العشرات في غرفة واحدة، ومن لم يجد له مكاناً، وضعوه في البهو بين الغرف. ثم وزّعوا الأطفال دون 14 عاماً على العائلات. حصلت عائلات على طفلين أو ثلاثة أحياناً، وتبرّعت نساء عازبات

facebook.com/the.Boooks

بتبنّي أطفال آخرين. ورقّموا مسكن العائلات «ألف»، والأفراد «باء».

وزّعوا علينا الخضار كالمعتاد: بعد العصر، لكن كميّة الماء ازدادت الآن بعد أن تمّ العثور على بئر المدرّج الأثريّ ممتلئاً رغم الجفاف. وكان علينا أن ننظّم أنفسنا في مجموعات لا تقل عن خمسة أشخاص للذهاب إلى الحمّامات مع مرافقة. وذلك بعد أن هرب أحد الشباب لدى ذهابه إلى الحمّامات التي تقع خارج سور المدرّج. حينها قال إبراهيم بأن من يريد الخروج من المعسكر فليطلب ذلك ولن يمنعه. أما من يتمّ إمساكه وهو يهرب فسيتم التحقيق معه ومعاقبته وسيُعتبر بأنّه مجرّد جاسوس وضيع.

في البداية كان علينا فقط الاعتناء بتنظيف المساكن الجديدة من الغبار، وتنظيف الأواني والأوعية. واضطلع المقاتلون بالمهام الأخرى: سلق الخضار، جلب الماء، الغسيل، إحصاء الموجودين مرتين يوميّاً، إضافة إلى مهامهم الاستطلاعيّة والعسكريّة. لكنّهم بدؤوا يتذمّرون من كثرة المهام وصعوبتها، حتى إنه كان على الواحد منهم أن ينام لثلاث ساعات فقط في الليلة، وساعتان في النهار حتى يقوم بالمهام المكلّف بها. كانت حجّة إبراهيم في أنّه لا يستطيع الوثوق بعد في الأهالي، خاصّة أن كل المهام التي يقوم بها المقاتلون خارجيّة. مشيراً إلى حادثة التسلّل من الحمّامات. وكاد التذمّر أن ينتهي لولا انفتاح جبهة جديدة من مكان ما جنوب المدرّج، وإرسال عدد

facebook.com/the.Boooks

من المقاتلين هناك لحماية الجبهة الجنوبيّة واستطلاع ط
القتال. حينئذٍ جمعنا إبراهيم في الساحة الرئيسة، واختار
فرداً طلب منهم الذهاب إلى غرفته على يسار المدرّج. ع
خرجوا بعد وقت قليل، عرّفنا إبراهيم على الطاقم الـ
الجديد الذي سيقوم بالمهام اليوميّة بدلاً من المقاتلين. وقسّ
كالتالي: اثنان في المطبخ لتقشير وسلق الخضار، اثنان لج
المياه من البئر، أربعة لتوزيع الطعام والمياه على «أل
و«باء»، اثنان لتنظيف الأواني والأوعية، اثنان للغسيل، وث
لتنظيف وحراسة الحمّامات. كان القرار الأخير مريحاً بالف
فلم يُلزَم أحد بعد ذلك بالبحث عن أربعة آخرين للذهاب
الحمّام. كنّا نشعر بأننا خاضعين لنظام مع الوقت، وانق
المجتمعين إلى: مدنيّ وعسكريّ. الفرق الوحيد أن النظا
تحكمه النقود ما دمنا نحصل على ما يكفينا. وعند هـ
الجبهات لفترة طويلة، بدأنا جميعاً نشعر بالاستقرار، وبا
نتسلّل إلى مسكن «ألف» لنستمني على أصوات الأزواج الـ
كانوا يمارسون الجنس. ومع الوقت، أصبح هذا عالمنا.

لم أعد أتكلّم مع إبراهيم إلا في أوقات متباع
وباقتضاب. كان يسألني عندما يراني عن ظروفي فأردّ ع
باختصار أيضاً. كنتُ أشعر بالخذلان لأنه لم يخترني في الط
المدنيّ، لكنني لم أكن أريد أن أتعرّض للإهانة مرّة أخر؛
خاصّة أنّني بدأت أستعيد قوّتي، وبدأت بالسعي لإيجاد مركز
في المعسكر كالجميع. إذ بدأ يظهر المهنيّون والحرفيّ

facebook.com/the.Boooks

والمعلّمون والقادرون على التعامل مع كل المشاكل وإيجاد الحلول اليدويّة والبدائل.

غسّان مثلاً، أحد شركائي في الغرفة من أصل 10، انهمك لمدّة أسبوع بتصليح خط جري المياه من البئر إلى الحنفيّات في الباحة. مخفّفاً بذلك العبء عن المكلّفين بجلب المياه من البئر مرتين يوميّاً. سوسن، العازبة التي تبنّت طفلاً في المسكن «ألف»، بدأت ورشة تعليم استعاديّة للأطفال بمباركة من إبراهيم. وبدأ عون ومصعب باستصلاح أرضٍ في الساحة الهاشميّة تمهيداً لزراعتها لتغطية تناقص حاجة المعسكر من الخضار بعد أن أوشكت على النفاد. اتّخذ الجميع مكانه الطبيعيّ في المجتمع الجديد بسهولة. لم نكن «كادحين» بالمعنى الذي يسلّم به إبراهيم. كان هناك تجّار وصيدلانيين وبائعي سيّارات وأدلّاء سياحيين، لكن معظمهم كان مستعدّاً للارتداد عن امتيازاته عند انقضائها. هكذا أصبح وليد، الشرطي السابق الوحيد، نجّار المعسكر. وعايدة، الدليل السياحيّ السابقة في مادبا، مسؤولةً عن صيانة الأسلحة إلى جانب إبراهيم. ووضع رائد، الفنّان البديل، الذي يمتلك لهجة لبنانيّة صرف، خطّةً لإعادة توزيع الخضار والمياه علينا وتنفيذها، بعد أن نجح عون ومصعب بزراعة أول دفعة من البندورة، وظهور ثمارها بعد ثلاثة أشهر رغم استمرار برودة الطقس، وانقطاع المطر.

كانوا يبنون دولة. كنتُ أرى دولةً تشيَّد أمامي، لكنني كنت خارجها. دخيلاً. متطفّلاً ومستهلكاً لمهارات الآخرين. كنتُ

facebook.com/the.Boooks

أساعد بالطبع عندما يُطلَب مني ذلك. وكنتُ أعرض مساء
لمن يرغب، لكن كانت خدماتي تصنّف بمستوى أد
المعسكر: سهلة الإقصاء والاستبدال. كنتُ أقضي ساعات
الحمّام وأنا أبكي على نفسي. كلّما ازدهر نظام دولتنا الج
كنتُ أشعر بالغربة. كنتُ أشعر بأنني مثير للشفقة وعاجز
الانتماء والحب والعمل والإخلاص. ولم يشفع أمام نف
اكتشاف درج ممتلئ بالأقلام والدفاتر والورق أثناء مساعدتي
هدم الجدار الغربي لمسكن «باء» لإعادة بنائه لمواجهة الر
والعفن. لم يشفع أن سوسن كادت أن تحتضنني أمام الجه
ولا الإعجاب المؤقّت الذي لمع في ابتسامة إبراهيم لوهلة.

في فترات متباعدة، كان غسّان يتحدّث معي بعفويّة و
العذب. لم أتّخذ أصدقاءً، ولم أحاول التقرّب من أ
وحاولت طيلة الوقت أن أعطي هذا الانطباع عن نفسي.
بعض المرات، كنت أحارب من أجل إقصاء نفسي
الآخرين. في إحدى الأيام كدت أن أقتل فريج من أجل
السبب. كنا أربعة فقط في ذلك اليوم بالغرفة. أربعة لصو
خطّطوا لسرقة دفتر كامل من سوسن لصنع أوراق لعب. ولا
لن أخسر شيئاً، تبرعّت بتنفيذ العمليّة. وبينما كنت أتظ
بتصحيح أوراق امتحانات الأطفال، غافلت سوسن ووضـ
دفتراً في بنطالي. وعندما فرغنا من صنع أوراق اللعب قلتُ
لا أرغب في اللعب. وبدأ فريج باستفزازي: «خلصنا والعَ
شو عندك شي أهم تعمله؟»، «الكل عارف إنك ممسحة ز

facebook.com/the.Boooks

قوم واعملَّك شي مفيد»، «حرّك هالقفا يا مصطفى». وبينما كانوا يضحكون على الجملة الأخيرة، قفزتُ من الفراش لأمسك بعنق فريج بيد، وألكم صدغه باليد الأخرى، حتى جاءا وقاما بفضّي عنه. بدأ فريج بالتوعّد ومحاولة الوصول إليّ بدون جدوى. حتى دعاني إلى القتال في الخارج «إذا كنت رجلاً».
خرجنا إلى الساحة الرئيسة وسط توسّل شركاءنا خوفاً من انفضاح السرقة، لكننا كنا مهتاجَيْن بما فيه الكفاية. كان الدم يغلي في أطرافي ورأسي وأردْت القضاء على فريج والانتقام منه ومن الجميع ومن نفسي. الانتقام. نعم. ثمن الخروج من حيّز الخيارات الفرديّة اللامبالية إلى حيّز الخيارات التي تعيد اختراع، وتكبير هذه اللامبالاة. انقضضنا على بعض كالمراهقين: عضّ وقرص ولكمات عشوائيّة في الهواء. وعندما كنت أحاول النهوض عن الأرض وهو فوقي، انتبهت إلى سلاح تركه أحد المقاتلين فوق عمود صغير على بعد أمتار مني، فنفضتُه عني وأمسكت بالسلاح وصوّبته باتجاهه. كنتُ أنتفض من النشوة، مستعيداً ذلك الشعور عندما تنظر في وجه ضحيّتك. أنت لا تعرف ماذا يعني ذلك في الأغلب. كنتُ منتشياً ومخموراً بالخدر الذي يُبقبِق في معدتي وحتى أطرافي. كنتُ مستعداً للاستمناء على جمجمة فريج المهشّمة، وكنتُ أراها تتفتّت بحركة من سبّابتي، إلى أن جاءني الصوت من خلفي: «ارمِ السلاح والحقني». تسمّرت في مكاني للحظات وأنا أستمع إلى صدى الصوت يتردّد، قبل أن ألحق بإبراهيم.

facebook.com/the.Boooks

22

وضعوني في المطبخ. أمسكوني من ياقة قميصي وأدخ
هناك ورموا عليّ فرشتي وملابسي وقالوا: اعمل. وهـ
جلستُ على الأرض أدخّن لساعات حتّى سالت المادة الص
على قدمي. جلست بوعي كلب، وحرفة ميكانيكيّ. جل
ونسيت أصبعي يُخَتْير ويصفرّ إظفره. جلستُ في الخطوة ال
ما قبل الباب الذي دخلته طوعاً، هنا، حيث خَتيَرَتْ الش
واصفرّ خاتمها، ولم نعد نراها. هنا، وصفت حياتي بمربّعا
وحبست كل أصبع بمربّع، وقتلت كل قطٍّ وقع في غرف
لأخرج هكذا: شاحباً، رماديّاً: كل الدم في البصاق أح
وكل القطط التي ربّيتها في حياتي جائعة، وكل الأيدي ا
وقعت عن التماثيل، وكل صمتٍ سقط في الجنس. ثم هـ
عليّ نفسي ووقفتُ أمام النار. وفكّرتُ في كل المُحتجَزين
المطابخ وأنا أضيف البندورة إلى المادة اللزجة التي تُبقبِق ،
النار.

احتجزوني لشهر. أعلم ذلك لأنهم قالوا لي: ستبقى
شهراً. وعندما خرجت، كانوا يلقّبون الشهر: أيلول. ووج

facebook.com/the.Boooks

لويس يجلس في الساحة الرئيسة تحت البرد الذي لم أشعر به وأنا وراء القدر الكبير المشتعل طيلة الوقت. في البداية لم أعرفه، سمعتُ سعالاً وحنجرة تتمزّق، وصوت تنفّس عالٍ لرئتين فقدتا وظيفتهما. كان لويس يجلس هنا في البرد مع آخرين لجؤوا إلى المعسكر هرباً من الاقتتال الذي قالوا إنه أحرق المدينة عن آخرها وأباد الجميع.

قرّر إبراهيم استضافتهم، وطلب منهم إمهاله بعض الوقت كي ينظّم أمر مبيتهم ويوزّعهم. إلى ذلك الحين، طلب منهم البقاء في الساحة تحت البرد. لا أعلم بالضبط كم كانت درجة الحرارة، لكنّني أجزم أنها حول الصفر أو أدنى. وفي كل شهر ينعدم فيه المطر، تتدنّى الحرارة باضطراد. وكان لويس بحاجة إلى عناية طبيّة: إبرة كورتيزون، مضادّات للحساسيّة، وأكسجين ليريح رئتيه اللتين كانتا على وشك الانهيار.

نظر لويس إليّ من دون أن يشير إلى أنّه ميّزني. كان وجهه يزداد قتامةً وشحوباً. ومع مرور الوقت، انتظم تنفسّه في إيقاع أسرع، مصدراً صفيراً حادّاً خرج على إثره إبراهيم من المسكن «باء» حيث كان يتفاوض مع الشباب على توزيع اللاجئين الجدد. نظر إبراهيم إلينا وسألني إن كان هناك ما نفعله، مقترحاً أن يهتم أسامة، الصيدلاني السابق، به. جاء أسامة وأبدى حزنه وتعاطفه. جاءت سوسن وجاء غسّان وحرّاس المدخل وأبدوا حزنهم. جاء فريج ونظر إلينا في طريقه إلى الحمّامات. هبط

facebook.com/the.Boooks

الليل وازداد الجوّ برودة ولويس لا يزال يتنفّس من أصغر
في رئتيه. حملته مع غسّان إلى غرفتنا، وألقينا عليه غط
ومسحنا العرق عن جبينه. توقّف الأسمر الذي ابتسم مر
عن التنفّس لثوانٍ وأغمض عينيه. استسلم للحظة وعاد ليس
ذهبتُ إلى المطبخ محاولاً أن أجد ما يخفّف عنه، ولم أجد
بواقي مرق البندورة المغليّة، فملأتُ قدراً وساعدته في الشر
وانتظرنا كي يسري حرارته في قصبته الهوائيّة. وبعد ربع س
ذهب في نوم ثقيل، بينما كان إبراهيم يرشد اللاجئين إلى غر
الجديدة في مسكننا. وبينما كان غسّان يخبره عن مرق البندو
اقترح إبراهيم عليّ أن أسقي البقية وقايةً من المرض، ل
الوقت كان متأخّراً، وكان العديد منهم يسعلون ويرتجـ
ويتعرّقون. وانتشرت الإنفلونزا في المعسكر. وكانت مهمّتي
الأيام القادمة توفير مرق البندورة للمرضى.

لكنني كنت أشعر بالخداع. فحرارة المرق المناسبة فقط
ما كان يهدّئ تهيُّج القصبات والأنف. إذ يمكن للبندورة نف
أن تثير الحساسيّة في أسوأ الأحوال. وتذكّرتُ وقتها أنني ك
ألاحظ حشائش مزهرة في محصول البندورة الذي كان ع
ومصعب يأتياني به عندما كنتُ محتجزاً. وعندما طلبتُ من
أخذي إلى المزرعة في الساحة الهاشميّة، اكتشفت كنزاً سي
مشاكلنا للآن في الأقل. كان اليانسون قد نما على أطر
المزرعة بشكل عفويّ. وبما أن اليانسون لا يحتاج إلى الشمس
باعتباره محصولاً شتويّاً، فقد أزهر وانتشر على الأطراف و

facebook.com/the.Boooks

شتلات البندورة. وهكذا أصبح لدينا علاج للإنفلونزا التي انتشرت في المعسكر، ولم يسلم إلا القليل منها.

خصّصوا لي زاويةً في المطبخ، ووفّر فريج لي حطباً، وأعطوني قدراً كبيراً وأوعيةً، وبدأت أنظّف اليانسون من الأتربة وأغليه وأوزّعه على الجميع. وفي غضون أسبوع، عادت العافية للمعسكر، وتحسّنت صحّة لويس، وبدأ الجميع يبتسم لي. وفي كل ليلة، ذهبتُ إلى الفراش مرهقاً وراضياً وأنا أفكّر في استمراريّة تدفّق اليانسون.

في أحد الأيّام، طلبتُ من عون ومصعب الذهاب معهما إلى المزرعة وما حولها لأستطلع التربة، وفي بالي زراعة المزيد من اليانسون. وكما توقّعت، كان اليانسون ينمو وينضج ويجفّ من دون أن تمسّه يد أو مياه. وعندما ناداني مصعب إلى بقعة في طرف الساحة الغربيّ، أدركتُ بأننا عثرنا على سبب وقايتنا طيلة هذا البرد. إذ كانت الكميّات الهائلة من الأعشاب البريّة التي وجدناها تكفينا لأشهر: بابونج ونعناع وزعتر برّي وميرميّة وشيح وقيصوم.

قمت بغلي الميرميّة للمصابين بالمغص، ولتخفيف آلام الدورة الشهريّة. وطلبتُ من الأطفال شرب القيصوم المغلي لتقوية أجسادهم رغم مرارته. وقمت بخلط الشيح والميرميّة لساعتين على نار هادئة عندما أصيب أحد الأطفال بالديدان. وفي بعض الأحيان، كنتُ أوزّع خلطة ساخنة في سبيل الوقاية.

facebook.com/the.Boooks

أما لويس، فأعددت له خلطة من البابونج والزعتر والشيح ا
البلغم وتهدئة الحساسيّة 3 مرات في اليوم: في الصباح، و
الغداء، وقبل النوم. وكلّما ازداد الطقس برودةً مع دخولنا
تشرين الثاني/ نوفمبر، كنتُ أزيد من الكميّة وأقرّب من مو
توزيع المشروبات. وعندما دخلنا في كانون الأوّل/ ديسم
كنتُ أوقظ الجميع قبيل الفجر لتناول خليط البابونج والشيح

كانت حياتي تسير بإيقاع روتينيّ واحد: أستيقظ قبيل ال
لتوزيع الأعشاب التي تغلي على نار هادئة من الليل، ثم أتن
الخيار والبندورة الطازجة، وأذهب إلى زاويتي في المطبخ لـ
محصول الأعشاب، وغلي جرعة الصباح. وعندما ينتهي تو
الكميّات، كنت أذهب إلى المزرعة في الناحية الغربيّة
الساحة الهاشميّة لاجتثاث الأعشاب المتطفّلة والجافّة، وحـ
المزيد من التربة لزراعة كميّات أخرى. عندما أعود في و
الغداء، أقوم بغلي جرعة الظهيرة وأوزّعها، وأتفرّغ بعـ
للطلبات المتفرّقة: صداع، جروح سطحيّة، بداية زكام،
مفاصل، انخفاض الضغط وارتفاعه، الإسهال والإمسا
وعندما حبلت عايدة بعد زواجها بإبراهيم، أعددتُ لها شاياً
الميرميّة واليانسون يوميّاً. كنتُ سعيداً وراضياً بدوري الجـ
الذي عثرتُ عليه صدفةً. كنتُ فرداً مُنتجاً كالآخرين. وتوقّـ
التعليقات والمزاح، وعاد إبراهيم ليأتي إلى زاويتي في المـ
كل يوم لنتحدّث كما كنّا نفعل في معسكر سبيل الحوريّات.

في بعض الأحيان، كان إبراهيم يسرّ لي بما يجري خا

facebook.com/the.Boooks

المعسكر: انقطعت الأخبار نهائيّاً عن كتائب حركة عمّال العبدلي، وقطعت الطرق والإمدادات عنهم. متوقّعاً أن جبهة الجسر قد هدأتْ بعد معركة طويلة استمرّت أشهراً شاركت فيها كل الجبهات من صويلح وحتى سحاب. قال لي بأن ما وصله من أنباء عبر المستطلعين واللاجئين تشير إلى أن المدينة خَرِبَت عن آخرها، وأن الجثث تكوّمت في الشوراع لتتعفّن. وأن عدد المقاتلين الذين ماتوا من الأمراض التي انتشرت أكثر من الذين قضوا في القتال. أرسل إبراهيم مستطلعين لم يعد بعضهم. والذين عادوا أخبرونا بأنهم لم يروا آثاراً للحياة خارج معسكرنا. استبعد إبراهيم ذلك، وردّ بأنه يعتقد أن ثمّة معسكرات نجت وتختبئ في مكان ما ولا تعلم عن بعضها كمعسكرنا.

لكننا لم نعِر بالاً لما كان يجري، أو لا يجري خارج المعسكر. لقد تورّطنا هنا وأصبح المعسكر دولةً مكتفية. وأصبحتُ عطّار المعسكر. وامتدّت خدماتي لتشمل اقتلاع الأسنان، ومداواة الجذام والجرب، وحتى قصّ الشعر. كنّا نعيد إنشاء مجتمع ظهر قبل مئة عام بالطريقة نفسها. عاد الوقت بطيئاً وثقيلاً، وحبلت المزيد من النساء، وانتقل العديد من المسكن «باء» إلى «ألف» هم وزوجاتهم الجدد. وفي كل مرة نحقّق فيها إنجازاً جديداً، نخرج إلى الساحة الرئيسة لنتناول البابونج ونحتفل. كنا مجتمعاً مثالياً يحاول الإخلاص لهذه البقعة من مدينة خرّبناها جميعاً، ولم نعد نرغب باستعادتها. كانت عمّان تبدو من أعلى المدرّج، حيث سهرنا باستمرار لنتحدّث، مدينة

facebook.com/the.Boooks

هجرها الوحوش والبشر. مجرّد خدش سطحيّ في ذاكر
أرضاً حرثها مزارعون وهجروها. ساحة إسمنت وحديد
هجرها باعة البسطات وسائقي الأجرة وعمّال المصانع كأنّه
تكن. ولم نكن نشعر بالأسف. ولم نعد نستقبل لاجئين، أو
على جثث متعفّنة. كان الموت إشارة إلى نجاتنا، ولمّا انق
أدركنا بأننا وحدنا. ولم يعد لوجودنا معنىً خارج المعس
وشيئاً فشيئاً، بدأنا بالتحوّل إلى عمّانيين مرة أخرى. كنا ننج
شهرٍ ما أنجزه العمّانيون في عشر سنوات، وبالتسلسل نف
فخصّصت زوايا بعينها لعرض الخدمات وتبادلها، وبدأ المج
المتجانس بتصنيف نفسه إلى: حرفيين، وعارضي خد
استشاريّة. عون ومصعب مثلاً وجدا نفسيهما مضطران لم
جزء من فائض محصول الخضار بخدمات رائد في حساب
الفائض ومبادلته بالشكل الذي يضمن لهما جودة حياة أفض
وفي مقابل تدريس سوسن للأطفال، قامت أمهاتهم بردّ الج
عبر التناوب على تنظيف غرفتها، والعناية بطفلها الذي تب
وبطبيعة الحال، حصل إبراهيم وعايدة والمقاتلين على ج
الخدمات وجزءاً من الفائض مقابل حمايتهم لنا.

كانت لدى إبراهيم خطّة جديدة. بعد أن أبلغنا عبر سا
علينا التجمّع في الساحة الرئيسة في لحظات، قال إنه بدأ ب
للتوسّع خارج المعسكر، وإنه في مرحلة التفاوض على
مستوطنات على أنقاض المنازل التي جرى هدمها. وطلب
جميع مالكي المنازل أن يوثّقوها لدى سوسن.

facebook.com/the.Boooks

كانت خطّته تقتضي استصلاح المنازل التي كان يمتلكها أهالي المعسكر لتحويلها إلى مساكن آمنة في أنحاء المدينة. وكان على الرّاغبين بالسكن فيها استقطاع جزء من خدماتهم الاستشاريّة أو الحرفيّة لضمان استمراريّة العمل، وأداء أجور البنائين، ودفع أجور السكن مقدّماً إلى مالكيها، وجزء آخر إلى إبراهيم وقوّاته لحماية هذه المساكن.

وحالما انتهى المالكون من توثيق المنازل، اصطفّ دور طويل أمام زاوية رائد لتسلّم إشعار السكن واقتطاعات الخدمات. وكان إشعاري يلزمني بتخصيص ثلث محصول الأعشاب مقابل الحصول على شقّة في عمارة أبو وائل عند نهاية شارع الجامعة، بالقرب من إشارة الدوريّات. حيث قال لي إبراهيم إنّها من أكثر المناطق أمناً الآن، وأقلّها تعرّضاً للدمار. كان واثقاً من كلامه، ويبدو أنّه بدأ بالخطة منذ زمن بعد أن هدأ القتال، وتفرّغ عدد من المقاتلين لإجراء دوريّات استطلاع في أنحاء المدينة وصلت حتى ما بعد الجسر الذي أخبرني أنه تمّ هدمه أخيراً.

بنى أبو وائل، الذي جاء مع الدفعة الثالثة للاجئين مع أبنائه وأحفاده،عمارته في أواخر التسعينيّات، بعد أن تقاعد من عمله كمترجم في السعوديّة. حمل الستّينيّ نموذجه الكادح في الخليج ليموت في بنايته التي خصّص منها شقّتين لأولاده: وائل المصاب بمرض عصبيّ، أظنّه التوحّد، منعه من العمل، وأحمد الذي كان يحتل منصباً إداريّاً في مصنع بسحاب.

facebook.com/the.Boooks

لم نكن نعير اهتماماً لأحمد الذي لم يكن يجيد تقديم خدمة، أو القيام بأي حرفة، فأهملناه كلياً حتى طلب ، إبراهيم أن يحرس بئر الماء الذي لا يحتاج إلى حراسة ب استصلاح المواسير،لكن وائل كان يبهرنا في كل مرة يقرّر ف أن يقدّم خدماته، أو مساعدة الآخرين. بتوتّره الدائم، وارتج جسده، وطريقة كلامه، وشعره الرمادي وبياض بشرته الباهت

كنّا كثيراً ما نصادفه خارج المعسكر وهو يرتدي قمي وبنطلوناً فاتحي اللون. يتمتمُ وينظر إلى الأرض ويشير بي وهو يتجنّب المشي على الأحجار غير المستوية في شا الأعمدة. يمشي بخطوات صغيرة ومتوتّرة: معنّفاً الأحجار و وضعها بهذا الشكل. أو جالساً في حصّة من حصص سو بين الأطفال محاولاً حلّ مسألة حسابيّة، مساعداً إياي العطارة من دون أيّ كلمة، وأحياناً يظهر بعد يومين وقد اكتش تربةً صالحة وحرثها وبذرها ورواها.

بعد فترة، أخبرني أبو وائل أنه يخزّن جزءاً من المحص الذي أعطيه إياه ليضمن لوائل عملاً مناسباً بعد انتقالنا. هذا جعلني أشعر بأنني، بشكل ما، مسؤول عن توفير حياته. لذ كان عليَّ أن أتعامل معه، وأوفّر له المحصول في أوقا محدّدة، نسهر بعدها في أعلى المدرّج بصمت ونحن ننظر إ نيران المدينة تنطفئ وتذوي ليحلّ محلها أرخبيلات نيران صغ أخبرني وائل أنّها للطهي والحرارة. لم تتغيّر علاقتنا. حتى و يعاتبني بخجل شديد على جفاف الأعشاب أو إصابتها بالد

facebook.com/the.Boooks

والفطريّات. وعندما انتشر المنّ في المحصول، أمرني أبو وائل بألا أتعامل مع أحد غيره، على أن تكون العلاقة مباشرة معه.

لم نعد نسهر سويّاً، ولم يعد يساعدني في العطارة بعد ذلك اليوم، وأصبحنا نكتفي بالإيماء عندما نلتقي، كأنّ شرخاً حدث بيننا. شعرتُ بالذّنب لأنني اعتقدتُ أنّه أراد صديقاً يمكنه أن يساعده ويتحدّث معه بالوقت نفسه.

لم أعد أسمع أخباره. إلى أن أخبرني أبو وائل أن زوجته أنجبت طفلاً ثانياً، وأنّها تعرّضت لنزيف أثناء الولادة. في الواقع، لا تلبث أن تتحوّل الزيارة الأسبوعيّة التي يطالبني بها بالمحصول إلى حفلة تذمّر من كل شيء: الأحفاد الذين يلتهمون كل شيء، الاجتزاء المتصاعد الذي يطالبه به إبراهيم من حصّة المياه والخضار، الجو البارد، النباتات التي تموت رغم كلّ شيء، وزوجته التي ماتت رغم كل شيء.

في إحدى المرّات، تجرّأتُ على اقتحام مساحة أبو وائل الخاصّة، وشعرتُ بالحاجة إلى أن أضع يدي على كتفه. عندما فعلتُ ذلك ونحن نتحدّث أمام العطارة سكتَ فجأةً، ولم يعد قادراً على النظر إليّ. كنتُ، في تلك اللحظة، سجّاناً قرّر أن يتعاطف مع ضحيته. وهكذا، كنتُ دوماً سجّان حياتي.

facebook.com/the.Boooks

23

انهمك الجميع في زيادة الجهد في تقديم الخدمات لـ
متطلبات المساكن الجديدة. ومن حين إلى آخر، كان يأ
مندوبو الاستطلاع ليطمئنونا على سير العمل.

ومن أجل المحافظة على استمراريّة محصول الأعشا
بدأتُ بالخروج إلى مناطق لا تقع تحت سيطرة إبراهيم. مس
إيّاه على ضمّ الأراضي الجديدة إلى المعسكر مقابل إعفائي
حصّة من المحصول. وبدأت بالتخفيض من الخدم
المجّانيّة، إلى أن أصبحت جميع خدماتي بثمن.

كنتُ قد أصبحتُ قادراً على شفاء جميع أنواع المغ
والصداع والدوار وأمراض ضغط الدم، وبدأت أقدّم خدم
وقائيّة للحماية من تساقط الشعر، وتقوية المناعة، وأو
الكلى، والضعف الجنسي، وزيادة النشاط، ووقاية الأسنان
التسوّس، وحتّى مساحيق خاصة للتجميل وإزالة السواد
تحت العين، لكن ثمّة مرض واحد لم أستطع شفاءه: السرطا

في البداية، شكّ أسامة أن هزال لويس المستمر عائدٌ

facebook.com/the.Boooks

إصابته بالديدان التي انتشرت في محاصيل الخضار والأعشاب، لكن مع اختفاء صوته تدريجيّاً، وخروج قطع سوداء ودم مع البلغم، تأكّدنا أنه مصاب بسرطان في الرئة.

قال لي أسامة بأنّ الإرهاق المستمر للحويصلات الهوائيّة باستخدامها بأقصى طاقتها يعرّضها للتليُّف مع الوقت. ومع تقلّص هذه الحويصلات نتيجة الحساسيّة المستمرّة التي يمكن أن يسبّبها الهواء الملوّث أو البارد، تنمو الخلايا السرطانيّة لتوقف عملها نهائيّاً.

كان لويس يُحتضر أمامي من دون أن أستطيع شفاءه. كنّا عاجزَيْن ومنسيّين. بينما كان لويس يخسر مع كل تقيّؤ قطعة سوداء أخرى، كان المنّ ينهش محصولي حتى أباده عن آخره مع عودة الجوّ إلى الاحترار بدخول نيسان. كان قد مرّ سنة وشهرين على التقائي به للمرة الأولى، وها هو الآن يموت أمامي كما مات كل شيء. وشعرتُ بأنّني أريد أن أغفو إلى جانبه وأموت أنا أيضاً.

لا أعرف كيف أصف لك الأمر. ربما شعرتُ بالخذلان. ربما شعرتُ بعدميّة وجودي ووجوده وكل هذا الاقتتال والمعسكر، والمدينة التي تستيقظ في الخارج، وجميع الذين غادروا تباعاً لدى انتهاء تشييد مساكنهم الجديدة. ولم أعُد أريد إلا أن نموت سويّاً هنا.

غادر الجميع إلى مساكنهم واخترت أن أبقى مع لويس. مَن

facebook.com/the.Boooks

استطاع منهم الالتزام بجودة واستمراريّة خدمات عاليّة، ح
على أفضل المنازل وأكثرها أمناً واتساعاً في الجهة الغر
بينما اختار بقيّتهم من الحرفيّين والمزارعين المغادرة
الأراضي المهدّمة شرق المعسكر نتيجة استهلاك خدماتهم
الاجتزاءات التي كانت تتراكم عليهم حتى أصبحوا مدي
لإبراهيم وقوّاته.

عندما جاء إبراهيم ليودّعني ويحاول إقناعي بالمغادرة
آخر فوج قال لي إنّني لا أنتمي إلى المكان الذي اخترته. ا
تذكر شجارنا في معسكر سبيل الحوريّات؟ كنتُ أعتقد بأ
متطفّل وعديم الأهميّة. كنتُ غاضباً لأنّك تريد أن تصبح كا
مثل البقيّة. كنتُ أنظر إلى شخص مزيَّف يريد تحقيق ذاته
التخفيف من عذابات الآخرين. شخص يريد أن يمنح ح
السخيفة معنىً لأنه يعلم أنّه لا يستطيع تحقيق ذلك وحد
حسناً، أنتَ لم تتغيّر، ولا يمكنك أن تتغيّر. انظُر إلى نفسك
أنت تنتحر من أجل شخص آخر. مجرّد صديق آخر شا
الظروف أن تتشاركا حياة مزيَّفة، ومدينةً تستطيع أن تحت
ملايين مثلكما من دون أن تتركَ فيهم أثراً. انظُر إلى الخار
اخرُج من هذه الدولة السخيفة التي صنعناها لأننا نؤمن بزوالها
اخرُجْ لترى الناس وهم يخرجون من دولهم الشبيهة. اخ
لترى الشّجر الذي تعفَّن طيلة هذه المدة يورق من جديد س
عشتَ أو متّ. متى ستفهم أن كل ما حصل ليس له علاقة ب

facebook.com/the.Boooks

شخصيّاً؟ متى ستفهم أنك لا تشكّل فرقاً؟ وبأنك لن تستطيع، مهما حاولت، كما فعلتَ في العطارة هنا، أن تُخلِص لمجتمعك الجديد، وتجد الخلاص فيه؟ كنتَ مخلصاً بالفعل في أغلب الفترات وأصعبها، وكنتُ معجباً بإخلاصك. كان الجميع معجباً بعملك، وحصلت على ما تريد: بدأتَ عملاً أكسَبَكَ قيمة ومعنى. وكنتَ شريكاً في تنظيم الأمور وتنفيذها. كنتَ نموذجاً مثاليّاً لاجتماع الخبرة والطاقة والرغبة في العيش، لكن ما الذي حصلتَ عليه بالنتيجة؟ صدّقني، سنبقى جميعاً نسدّد ثمن أخطائنا بقية أعمارنا. سنبقى جميعاً غرباء باختيارنا. وهذا ما يجعل من المدينة مكاناً قاسياً ومُستفزّاً. وما حصل كان أكبر دليل على أنّنا كنّا نعيش طيلة عمرنا في مدينة بأذهاننا فقط. إلى درجة كنّا مستعدين للانزواء في أصغر بقعة منها وإنشاء واحدة جديدة. وسيبقى الأمر كذلك. كلّ مكان خارجها يبدو أفضل وأكثر تسامحاً والتصاقاً بوجودك. هل تعرف لماذا؟ لأننا جميعاً لم نولد في عمّان، لكنّنا بالتأكيد سنموت فيها. كما سيموت صاحبك وتموت معه».

لم أكن أعرف كيف يجب عليّ أن أرد. قلت له بأنّه يقول الحقيقة التي لا تُشعره بالذنب. إنّ بعضنا: كادحون تحوّلوا إلى سلطويين، وبعضنا الآخر: معذّبون تحوّلوا إلى قتلة. كنت أتعمّد إهانته، وكان يعرف ذلك، لكن حقيقةً ظلّت موارَبة كل هذه الفترة سنبقى نحافظ عليها. حقيقة تستدعي أن يغادر إبراهيم

facebook.com/the.Boooks

بالطريقة نفسها التي يغادر بها عمله في الجسر، وأن أبة
بالطريقة نفسها التي أعيش فيها على حافّة كل شيء.

بعد أسبوع مات لويس. كنتُ قد تخلّيتُ عن إقنا
بالشرب والأكل، وقرّرتُ أنني سأفعل ذلك أيضاً. مات أث
نومه من دون أن يشكو أو يطلق صوتاً. استيقظتُ لأجد
الصفير الذي تعوّدتُ عليه قد اختفى. وعندما دفنته في مزر
الأعشاب بعد أن بترتُ ذراعه، عدت إلى الغرفة، ووضع
الذراع في حقيبتي وخرجتُ من المعسكر.

كانت الشّمس حارّةً سلفاً رغم أننا كنّا في الصباح. وبي
كنتُ أعبر الساحة الهاشميّة إلى الغرب، شاهدتُ شخص
يرتديان ملابس نظيفة وقبّعات بيضاء، يتكلّمان بلغة غريبة
أفهمها وهما يشيران إلى خريطة صفراء قديمة بين أيديهما ك
لو كانا يقارنان مكاناً فيها بالمدرّج الروماني.

facebook.com/the.Boooks

أحمد الزعتري

لانحناء على جثة عمّان

لا أذكر تماماً كيف بدأت الأمور. من المحتمل أنها دأت هكذا:

نستيقظ فجأة على قرع عنيف على الباب. لم يكن جرس البيت يعمل آنذاك، خرّبه أحد المتطفلين على حياتنا بعكّازه بعد أن ضغط به على الزر الناتئ للجرس على يسار الباب. زارنا الكثير من الناس في منزلنا بدافع لفضول، فقد كنّا نشكّل ثنائيّاً خارقاً. وفي غمرة انشغالنا ناء علاقة صحيّة، مجنونة، لكن صحيّة، كانوا يراقبون ف ستنهار. كنت مدققاً لغويّاً، وهي صحافيّة. ستقبلنا في منزلنا مئات الفضوليين الذين صمدنا امهم، لكنني أتذكّر الآن...

BN 978-9953-68-696-7
789953686967

المركز الثقافي العربي
البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail
cca_casa_bey@yahoo

facebook.com/the.Boooks